محمد القيسي

دراسة في شعره ونثره

إبراهيم خليل

محمد القيسي

دراسة في شعره ونثره

طبعة ثانية

2026

• **محمد القيسي: دراسة في شعره ونثره**

(دراسة)

• **د. إبراهيم محمود إبراهيم خليل**

• **الطبعة الثانية 2026**

• **الإخراج الفني: سمير اليوسف هاتف: 0799677569**

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2026/7/4397)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب:

عنوان الكتاب	: محمد القيسي: دراسة في شعره ونثره
تأليف	: خليل، إبراهيم محمود إبراهيم
بيانات النشر	: عمان: إبراهيم محمود إبراهيم خليل، 2026
الوصف المادي	: 166 صفحة
رقم التصنيف	: 811.93
الواصفات:	: / النقد الأدبي/ / التحليل الأدبي / / الشعراء العرب/ / الشعر العربي/
الطبعة	: الطبعة الثانية

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

• **(ردمك): 978-9923-9536-3-1** ISBN

• جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبَق من المؤلف.

• All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior written permission of the author.

المحتوى

بمثابة تقديم	7
الفصل الأول غريد الحزن الموزون	17
الفصل الثاني فضاء الموت في شعره	29
الفصل الثالث النص الموازي والتناص	43
الفصل الرابع المكان في شعره	61
البيت	63
النافذة	65
الطاقة	67
الشرفة	70
الحيطان	71
الفضاء الداخلي	77
البيت – الأم	83
بيت الشعر	83
خلاصة	84
الفصل الخامس تأثير لوركا ففي شعره	91
الأثر والوسيط	94
مظاهر الأثر اللوركوي	97

ترديد الأمكنة	100
رموز لوركا وصوره	105
الفصل السادس تراسل الأنواع في شعره	111
الفصل السابع منمنمات أليسا	127
الفصل الثامن لغز الأنا وإشكالية التجنيس	137
سؤال التجنيس	144
الرواية – السيرة	145
الرواية الرحلة	147
الرواية القصيدة	149
الخاتمة	153
مصادر الكتاب ومراجعه	155
للمؤلف	159

بمثابة تقديم

ها هي ذي السنوات تمضي.. سنواتٌ طوال مرّت على رحيله، وسدوه التراب، ثم دفنوه، وألقوا على مثواه القليلَ من الكلمات.. معبّرة، موجعة، صحيحٌ، لكنها سرعان ما تبددت في الهواء مثل فقاقيع تعلو سطح الماء لحظات ، ثم تتلاشى ، تذوب في الزبد، تفنى.. سنواتٌ. سنواتٌ.. وأحَدٌ يكاد لا يتذكر القيسي: الشاعر الذي جاب الآفاق فعلاً، لا على الورق حسب. عازف الشوارع، الذي أغرق حساسيتنا بشجن الكلمة، ولوعة الفراق . في العام 1944 رأى النور للمرة الأولى في بلدة صغيرة، دخلت التاريخ ، وخرجت من الجغرافيا حين احتلها الصهاينة عنوة، وهدموها بقسوة. استبدل اسم كفر عانة اسْمًاً آخر(أور يهودا) لأنّ اللغة هي الأخرى أداة من أدوات الاحتلال، والمحو، بيد المنتصر. المنتصر الذي لا يكتفي بالاعتداء على الناس، وتنفيذ مجازره، لكنه يعتدي أيضاً على التراب، وعلى التاريخ، وعلى الجغرافيا، ويعتدي أيضاً على الكلام.منذ ذلك الحين ، ونفس القيسي تمتليء ألمًا، وشجنًاً، وحزْنًا، وحقداً، وتطلعاً لأمل يومض برقُه من بعيد، كلما اقتربنا من ذلك الوميض، وظنناهُ على مرمى حجر، تبيّن أنه يمْعن في الابتعاد، إلى حدود المُحال .

للقيسي في رحلة العمر جولاتٌ، وصوْلات. في الجلزون، وفي رام الله، وسواهما، في الرصيفة وعمان، حتى حدود الصحراء في السعودية ،والكويت ،وليبيا، والمغرب، وثلوج سيرانفادا في الأندلس غربيّ العالم القديم .كلّ تلك المسافات لم تُشْبع توقه للسفر. فحتى عندما حطت به الرحال في أحد المستشفيات غائباً عن الوعي، كان يعدّ العدة لسفر جديد آخر، كأنّه هو من عناهُ ابنُ زُريْق البغدادي(420هـ) بقوله:

ما آبَ من سفرٍ إلا وأزعـجهُ

رأيٌ إلى سَـفَرٍ بالحَزْم يُزمعـــــــعهُ

كأنّـــــما هــوَ في حلٍّ ومُرتَـحلٍ

موكـّــلٌ بفضـاء اللـــــه يَـــذْرَعُـهُ

* * *

عندما صدر ديوانه الأول " **راية في الريح** "1968كان قد نشر الكثير من قصائده في مجلات عدة، منها مجلة الآداب البيروتية، وكانت إحدى قصائد الديوان " الصمْتُ والأسى ". تلك التي استولتْ في حينه على إحساسي، ومشاعري، وحفظتُ مقاطع منها، وكنت أرددها متذوقاً ما فيها من الإحساس المفعم – حقا – بالشَجَن والأسى.. إلى جانب ما فيها من الإحساس بروعة الجرْس الموسيقي، والنغم، الذي يتواءم مع التجربة، وحساسيتها المفرطة. كنا قد خرجنا للتوّ من نكسة الخامس من حزيران – يونيو 1967. وكانت مجلة الآداب – في ذلك الحين – هي المجلة الوحيدة التي تلتقي على صفحاتها أقلام الشعراء، والكتاب، والنقاد، والدارسين في الوطن العربي، من الماء إلى الماء. رجاء النقاش، الناقدُ اللامعُ منذ تقديمه لديوان **مدينة بلا قلب** لأحمد عبد المعطي حجازي، سارع لتناول القصيدة في باب ثابت من أبواب المجلة، هو باب قرأت العدد الماضي من الآداب. توقّف مطوّلا عند تلك القصيدة، الصمت والأسى، مؤكدًا – فيما أذكر – أنّ تلك القصيدة، شهادة ميلاد لشاعر جيد سيكون له شأنٌ كبيرٌ في الشعر الفلسطيني، والعربي.

ويبدو أنّ تلك الكلمة انسحبت تمامًا على شعره، فقصائده سرعانَ ما غزت الدّوْريات، وتوالت دواوينه في الصدور: خماسية الموت والحياة، رياح عز الدين القسام، وغيره.. ولكنّ تشاغل القيسي بمطالب الحياة اليومية، والأسرة، اضطراه للسّفر الدائم، والعمل في مواقع شتى: مدرّساً حينًا، ومذيعًا حينا، وكاتب نصوص ، ومعدًا للبرامج.. وهكذا. مما صرفه أيضًا عن

العناية بتجربته الشعرية، وحظها من الاهتمام النقدي. ففي الوقت الذي كان فيه منْ هُمْ أقصرُ منه قامةً من الشعراء تلتفّ حولهم زُمرٌ من النقدة، والمُسْتكتَبين، ظلّ، هوَ، بعيداً عن هذه الأوساط.

فكانت أشعارُهُ، ودواوينه ، تملأ المجلات، وتنفدُ من المكتبات، دون أن تحظى تجربته بدراسة نقديّة جادة، كتلك التي تهافتَ فيها أصحابُها على شعراءَ آخرين تهافتَ الذباب على الشراب، أو تهافت الفَراش على الشّهاب. قال لي مرّة: إنّه لا يُحْسن الدعاية لنفسه. فبعض الشعراء الذين يستوْحون قصائدهم من شعره هو، وكاد يقول: يختلسون أفكاره، وصوره، ورموزه، أصبحوا أكثر منهُ شهرةً، والنقاد يهتمون بدراسة شعرهم أكثر من اهتمامهم بشعره. فكانَ جوابي: إنه لا يصحّ إلا الصحيح. وإنّ النقد الذي يُنشر – غالبًا – في الصُحف، ما هو إلا نقدٌ صُحفيّ ، فلا قيمة له، لا من حيث المضمون، ولا من حيث الأسلوب، ولن يدوم تأثيره إلا بالقدر الذي يدوم فيه تأثير هذا العدد، أو ذاك من الصحيفة، في عقول القراء، ووجدانهم. أما الدراسات الحقة ، فهي التي لا ترتجل ارتجالاً، ولا تقالُ بديهة وانثيالاً، ولا تُنْشر في وسائط تتحكّم بها المَحْسوبيّة، أو الرشوة.

أخبرني مرة أنّ صديقه أحمد دحبور، الذي يشرف على مجلة البيادر الأدبية التي كانت قد بدأت تصدر في تونس منذ العام (1990)، قرّر أخيراً، وبعد انتظار طال أمَدُه، وصبرٍ نفِدَ مَدَدُه، وتجاوز حده، تخصيص صفحات من أحد أعدادها القادمة لنشر دراسة حول شعره، مع مختارات من قصائده. وأضافَ مقترحاً: إنه سيكون ممتنًّاً إذا قمْت بإعداد تلك الدراسة، بشرط أن تكون طويلة، ومستوفاة. وعلى الرغم من أنني لا أستجيب – في العادة – لما يطلبه مني المؤلفون، سواءٌ أكانوا كتاب قصص، أم كتاب روايات، أم شعراء، وكثيرون يعرفون ذلكَ عنّي حتى باتوا يتحاشون الكلام إليّ في هذا الشأن، فقد وعدْتُ – على الرغم من ذلك – القيسي، لأنني فعلا كنت قد اعتزمتُ دراسة شعره.

ولم تمْض إلا أسابيع حتى كانت الدراسة مُعدّة للنشر، وتم إرسالها للمجلة عن طريق الأديب الكاتب فاروق وادي، الذي كان في حينه مشرفاً على مجلة صامد الاقتصادي بعمان.

ولكنّ المسئولين في المجلة، بمن فيهم المرحوم أحمد دحبور، وغسان زقطان، وثالث لم أعُد أذكر اسْمَه، لم يأنسوا لتلك الدراسة، ولم يعجبهم ما فيها من تحليل مُنصف لتجربة الشاعر، ومن ربطٍ بين بداياته، وما صدر من دواوينه الأخيرة، ولم يُعْجبهم ما ورد فيها من أمثلة، وشواهد، تصوّر، بصدقٍ، ما يتميّز به شعره على سواه، فيما يتصل بالرؤية، أو الأسلوب، أو اللغة، أو الرمز، أو الصورة، أو الصلة بين شعره والتراث ، أو ظاهرة التنوّع الأجناسي. ومن قبيل التعطيل تمّ تأجيل نشر الملفّ مراراً.

* * *

وعندما قامَ القيسي بزيارة إلى فلسطين، بعد اتفاق أوسلو المَشْؤوم، المُهين، آلمه ما لقيه من عقوق الأصدقاء في رام الله، وغزة. وقد عبّر عن ذلك مراراً بشعره، مثلما عبّر مريد البرغوثي عن ذلك في كتابه " رأيْتُ رام الله ".

وأكثر ما آلمه هو أنّ القائمين على القرار السياسي، والإداري، في المدينتيْن، يُساوون بينه وبين غيره من صغار الشعراء الذين لا تتجاوز شهْرَتُهم حدود رام الله، والبيرة، أو المبتدئين الذين لم تكتمل أدواتهم الفنية بَعْدُ، ولا يُحْسِنونَ نظْم القريض. آلمه على سبيل المثال أنْ يقدّم مُقترحا بإنشاء بيت للشعر في رام الله على غرار التجربة المعمول بها في تونس ، والمغرب ، ليتلقف الاقتراح شاعر مبتدئ ، فيصار إلى تنفيذ المقترح، وإسناد الإشراف على بيْت الشعر لذلك المبتدئ، ويترك القيسي خارج اللعبة، لا لشيء إلا لقرب ذلك المبتدئ من أصحاب القرار، ولأن مشاجرة بينه وبين وزير ثقافة السلطة تركته بلا وظيفة، فكانت رئاسته لبيت الشعر حلا لذلك الخلاف.

ظلّ القيسي في الواقع لا يتمتَّع من تلك الإدارة بغير الظلال، وقد حالت بيروقراطية تلك الإدارة دون توفير العلاج المناسب له في الوقتِ المناسب، مما أدى إلى رحيله على تلك الهيئة المأساوية المُفجعة. فعلى الرّغم من إيماننا بقضاء الله، وقدَره، فإنّ الكثيرين يظنّون – ولهم الحقُّ في ذلك – أنّ القيسي كان بالإمكان إنقاذه، وأنّ حسّاده – وهمْ كثرٌ – حالوا بينه وبين العلاج

المجاني، في المستشفى، بتأخير الموافقة على إعفائه من التكاليف التي لم تكن بحوزته بالطبع، ليصدر ذلك القرار متأخرًا في صورة، أفضل ما يُقال فيها ، أنها نوعٌ من رفْع العَتَب.

لقد مرّتْ سنواتٌ على رحيل القيسي، فماذا فعل أصدقاؤه، وأحباؤه، ومريدوهُ، من تلامذته الذين كانوا يتقاطرونَ عليه زرافاتٍ، ووحداناً، مدّعين أنهم يقتفون أثره، وينْهجون نهجه في الشعر، والإبداع؟ قلْ ما تشاء عن الإدعاءات عن التأثر به ، والسّيْر على نهجه، فليسَ هذا هو المهمّ، ولكنّ الأهمّ هو: هل أقاموا ندوة واحدة – خلا حفل التأبين الذي حاول كثيرون منهم تعطيله، وتأخيره، لإحياء ذكراه ، ودراسة شعره، دراسة جديدة- هل قام قليلٌ منهم، أو كثير، ونهضوا لجمع أشعاره التي لم تنشر، لينقحوها ، ويصدروها عن هذه الدار، أو تلك؟ وما الذي يحول بينهم وبين تناول روايته الثانية بالعرض، والتنويه، وقد صدرتْ بعد رحيله مغتنمين الفرصة، والمناسبة ،تجديداً لذكراه، وتعبيراً عن وفائهم، وامتنانهم، لما قدمه لهم، وأسداه.

الشائعُ أنّ القيسي لم يكنْ كريمًا، ولا جواداً. وأنه لم يفتح أبواب منزله (مضافة) لكثيرين ممن كانوا يقضون الأيام، والليالي، على موائد هذا الكاتب، أو ذاك. ومن الجائز، بل من الثابت، أنّ القيسي لم يكن معتدلا في علاقاته العاطفية، والنسائية، وأنه كان أقرب ، في بعض الأحيان، إلى التهوُّر، الذي يؤدي لمزيد من الإحراج. ومن الثابت أيضاً أنه كان يحسّ – نوعا ما – بتضخم الأنا ، ويرى في شعره شعراً فوق شِعْر الجميع، ولكنّ هذا لا يجوزُ أن يكون مسوغا للصمت ، والعزوف عن تجديد ذكراه، والعمل على نشر أعماله غير المنشورة، والتفكير بإعداد الدراسات عنه، وعنْ شعره، لا سيّما من أولئك الذين كان له الفضلُ الأكبرُ في تقديمهم للصحافة الأدبية، والمجلات، بل وتقديمهم للمتنفذين في دوائر ثقافية معينة أصبحوا يتمتعون فيها بامتيازات عالية، لا تحصى ولا تعد..

عندما جمعتُ ما كتبته، ونشرته عن شعر القيسي في كتابٍ بعنوان "القيسي الشاعر والنص " صدر عام 1998 عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، سألني أحدهم متظاهراً بالمزاح: كم دفع لك القيسي مقابل ذلك الكتاب؟ ثم استدرك فوراً، وقال : عفواً، أعرف أنّ القيسي ليسَ ممّن يدفعونَ شيئاً. وعندما تناولتُ القيسي في أربعة فصول من كتابي الذي صدر

بعد رحيله بثلاث سنوات، وهو كتاب " من معالم الشعر الحديث في فلسطين والأردن" وأهديتُ الصديق نفسه نسخةً من الكتاب، فاجأه أنّ فيه فصولا عن القيسي، وشعره ، وعندما تكلم متسائلاً، بادرته على الفور:

- لا أظنك ستخرج القيسي من قبره ليدفع لي مقابل هذه الدراسات.

عندما فاز القيسي بجائزة ابن خفاجة الأندلسي، وجائزة عرار، وجائزة البابطين، حصل على بعض المبالغ المالية الجيدة، لكن كثيرين ظنوا أنّ الجوائز التي فاز بها كانت مشوبة ببعض الشبهات. وإذا كان ذلك يصحّ على جائزة عرار لأنها منحت له في حينه لأسباب انتخابية لا شعريّة، إلا أنَّ الأمر في الجائزتين الأخريين مُختلفٌ. فالقيسي، أولا وأخيراً، يستحقّ ما هو أكثر من تلك الجوائز. ظنّ مرة أنّ بإمكانه التقدّم لجائزة سلطان العويس للشعر. وكان كثيرٌ من الأدباء، والنقاد، والشعراء، يتوافدون على منزل المرحوم الدكتور إحسان عباس لهذا الغرض، ومنهم من كتب في أبي إياس قصائد تجمع بين المديح والاستعطاف، بعض هؤلاء فاز فعلا بجوائز، وبعضهم ظلّ يأمل بالفوز، إلا أنّ القيسي اعتزم ذات يوم أن يزور المرحوم إحسان عباس وقد ظننته يحذو حذوَ الآخرين.

وكنتُ اعتزم اصطحابه معي لأن القيسي لم تكن لديه سيارة. واتفقنا على اللقاء في رابطة الكتاب لننطلق من هناك. وعندما وصلتُ مبنى الرابطة في الموعد المحدد وجدته ممسكا بسمّاعة الهاتف، واستنتجت من الكلام أنّ اتصالا هاتفيا جاءه من إحداهن، ولما استمرَّ نحو ثلاثين دقيقة في ثرثرته الهاتفية تلك، وذلك شيء عرف به المرحوم، اضطررتُ لتركه ،والذهاب إلى منزل المرحوم الدكتور عباس برفقة الكاتب القاصّ رشاد أبو شاور. وعندما سألني المرحوم إحسان عباس عن القيسي، ولماذا لم يجيءْ معي، قلت له الحقيقة، فضحك قائلاً:

- القيسي لنْ يتغير.

وكان كثيرون يتهامسون عن ضعف القيسي أمام الجنس الآخر. وعن استعداده الدائم للتضحية بأي موعد مسبق لقاء الحديث، أو الجلوس مع امرأة.

بعد ذلك لم يفكر القيسي فيما أعلم بزيارة أخرى للمرحوم إحسان عباس. ولم يكرّر الرغبة في ترشيحه للجائزة المذكورة، ظنًا منه أنّ الجائزة التي تُمنح لمن هم أقلّ منه منزلة، وأدنى قامةً، لعلاقة شخصية بهذا لكاتب، أو ذاك، جائزة لا تستحقّ أنْ تكونَ من مطامح الأنفس.

قبيل رحيل القيسي في (1- 8- 2003) بشهر، أو أكثر، اتصل بي بوساطة الهاتف، ليخبرني أنه اشترى بيتا (شقة) في حيّ المدينة الرياضية بعمان. وأنّ البيت يقع تقريباً مقابل المبنى المعروف باسم صرح الشهيد. وقال لي: بعد أن ننتهي من التشطيبات الأخيرة – وهي محدودة جداً – والانتقال للسكن، وكان قبل ذلك قد باع منزله في الرصيفة، وأقام في منزل مستأجر في ضاحية الأمير حسن، سوف ندعو الأصدقاء، ونولمُ لهم، وسيكون ثمة لقاءٌ دوريّ منتظم مرة في كل شهر، نتطارح فيه أحاديث الأدب، والفكر، والفن، بما يعود علينا ، وعلى غيرنا بالكثير الذي يغنى ما نكتب. ولم أره، ولم أسْمعه بعد ذلك.

وقد أخبرني الصديق الراحل خليل السواحري، بعد وفاة القيسي، أنه زارهُ مرة في دار الكرمل، وتعرّض في أثناء تلك الزيارة لمتاعب اضطرته للذهاب إلى المستشفى. وقيل لي: إنه كان يعاني من ارتفاعٍ في الضغط، وأنّ القلب لديه لم يكنْ على ما يرام . سمعتُ ذلك بعد أن دخل في غيبوبته الأخيرة، وتأخّر الموافقة على علاجه في المستشفى، وكان على أي موافقة من هذا القبيل أنْ توقع من الرئيس الراحل ياسر عرفات، غير أن بعض الموظفين تعمَّدوا – والعهدة في ذلك على الراوي- تأخير الإجراءات، فصدرتْ الموافقة بعد أنْ فارق الحياة بوقت قصير.

وبعد وفاة القيسي بأشْهر، صدرت روايته الثانية " شرفة في قفص " وكانَ قد ذكر لي أن الرواية في حوزة سماح إدريس – دار الآداب - وأنّ من المتوقع صدورها عام 2004. وبالفعل أنفذت دار الآداب، وبرّتْ، بما وعدَتْ. لكنّ القيسي لم تتحْ له رؤيتها منشورة.

في الرواية الكثير ممّا كان يحسن تجنب ذكره. وأودّ هنا أنْ أقول: إن الرواية الثانية ليست بمتانة الأولى. ولا هي بقوة البناء الذي وجدناه في حديقته السرية. إنّا نجد هنا قسْمًا يقربُ من الرواية، وقسْماً آخر لا علاقة له بالفنّ القصَصيّ، فضلا عن الروائيّ، وهو أشبه باعترافات، وانتقادات، يتطرّق فيها لعلاقته ببعض الأشخاص المعروفين، من أمثال: يحيى يخلف، وأحمد

دحبور، والمتوكل طه، وآخرين..ومن غريب ما يُذكر أنّ أحد أصدقائه من الكتاب تطوَّع لتوزيع النسخ (الإهداءات) ولم يكن يعرف أنّ فيها بعض التجنّي عليه، إذ كان المؤلفُ قد تناوله في شيء من الغمْز واللمْز، ولم يدرك ذلك إلا بعد أنْ قرأ الرواية.

وقد قارب كلامه عن هؤلاء أن يكون من قبيل القدح الشخصي الذي لا يجيزه العرف الأدبي، ولا يُقبل بوجوده في العمل الروائي الذي يُفترض أنْ يكون – على الرغم من واقعيته – نوعًا من التخْييل . ولهذا وجدنا في روايته الثانية " شرفة في قفص " عملا فجًّا بالمقارنة مع روايته الأولى **الحديقة السّرية** [1]. وعلى أيّ حال أستطيع الزعم بأنّ القيسي في حديقته السرية أثبت أنه ناثرٌ بقدر ما هو شاعر، وأنه روائي بالمستوى الذي هو فيه كاتبُ سيرة. وأنه قارىء مثقف بالمستوى الذي هو فيه فنانٌ مبدع. فالقيسي، باتفاق، قارىءٌ نَهِمٌ، شغفه بالاطلاع، واقتناء الكتب، لا حدّ له ،ولا نهاية، وقد جرّه هذا الشغف لاستعارة الكتب، والتمسك بها، وعدم إعادتها لمن أعاروه.

حدث أنني في سنة 1987 زرْت الجماهيرية الليبية برفقة الفنان الراحل محمود طه، وكنا مدعوّيْن للمشاركة في مؤتمر حول الحرية والإبداع في الوطن العربي، وكان المجلس القومي للثقافة العربية هو المنظم لذلك المؤتمر الذي استمرّ بضعة أيام حضرته وفودٌ من الأقطار العربية كافة. وفي أثناء اللقاءات التي كانت تجري على هامش الجَلَسات، تعرّف إليّ كاتبٌ ليبيّ معروف في بلاده، لكنه غير معروفٍ في الخارج، وقد أنسيْتُ اسْمه الآن. وفي أثناء الكلام صدَرَتْ مني عبارة استخلصَ منها مُحدّثي أنّ القيسي صديقي، أو بكلمة أدق، من معارفي، فطلب منّي على الفور أنْ أبلغه رسالة، وهذه الرسالة تتلخّص في ضرورة إعادة الكتب التي استعارها القيسي منه عندما كان في الجماهيرية. وعندما ذكرت الحكاية لبعض الأصدقاء، فوجئتُ بأن الجميع متفقون على أنّ القيسي إذا استعار كتابًا فلا يمكن أنْ يُعيده. فهو يعمل بالمثل الذي يقول: مجنون من كان لديه كتابٌ فأعارهُ، ومجنون من استعار كتاباً من أحدٍ فأعادهُ. رحم الله القيسي ، فهو – في كلّ الأحوال – مبدعٌ يصدق عليه القول: فنان لكلِّ أوان.

1.انظر ص 137 من هذا الكتاب

بالله يا طير الحَيّ إنْ جيتْ دارْنا
رَيِّضْ ألا يا طيرْنا وارْتاحْ
قلْ لها بحالِ الجَهلْ يا طولْ عِزْنا
يا ما قعَدْنا عَ الفْراشِ صْحاحْ
يا مِنْ دَرى يصْفا زَماني وَعاتْبو
وأعاتبو عَ اللّي مَضى لي وراحْ
ويزْدادُ الحَنينُ،
ويقطرُ المَوَّالُ أشْجانا

الفصلُ الأول
غِرّيُد الحُزْن الموزون

قلما نتذكَّر نحن الذين نهتم بالشعر، والنثر، الراحلين من الشعراء، وقد يُعزى ذلك- غالبًا - لانشغالنا بما هو لصيق بحياتنا اليومية. فها هو الشاعر الكبير محمد القيسي – وقد مرت على رحيله خمس عشرة سنة- يكاد لا يتذكره أحد، لا من أصدقائه، ومريديه، الذين كانوا يتحلقون حوله، من حين لآخر، ومن موقع لموقع، ولا من القراء المهتمين بالشعر الرصين، والإبداع المبتكر الرفيع. فكأن الشاعر الذي شُغل به الناس دهرًا، وفاز بجوائز عدة، وأصدر ما يربو على عشرين ديوانا، عدا روايتين، وبعض كتب السيرة، والشهادات، منها " الموقد واللهب.." كغيره ممن كتبوا أسماءهم على الماء، فلم يترك ما يُذكِّرُ الآخرين به، كقول السياب[1] رحمه الله (الوافر):

فاين أبي، وأمي، أين جدي، أين آبائي؟
لقد كتبوا أساميَهمْ على الماءِ
ولستُ براغبٍ حتى بخطِّ اسمي على الماءِ
وداعًا يا صِحابي، يا أحبّائي ..
إذا ما شِئْتمو أنْ تذكروني
فاذكروني ذاتَ قمْراءِ
وإلا فَهْوَ محضُ اسْمٍ تبدَّدَ بيْنَ أسْماءِ
وإلا فَهْوَ محضُ اسْمٍ تبدَّدَ بيْنَ أسْماءِ

وداعًا يا أحبّائي.

فالقيسي، من حيثُ هو شاعرٌ – لا روائيٌ، ولا قاصّ- لم يكتفِ بكتابة اسمه على الماء، حتى يمضي نسيًا مَنْسيًا، فلا يذكره أحدٌ، لقد حفر اسمه حفرًا على جذع سنديانة الشعر العربي الحديث، ولا يستطيع دارسٌ يستحقُّ هذا الوصف تجاوُزَهُ إذا أراد لدراسته الشمول، والدقة، والاحتفاء بالشعراء الحقيقيّين، لا الأدعياء المتطفّلين، الذين وصفهم المتنبي قبل ألف ونيّف من الأعوام، في قوله المأثور ، وبيته المشهور (البسيط):

بأي لفظٍ تقولُ الشِعْر زِعْنِفَةٌ

تجوزُ عنْدكَ لا عُرْبٌ، ولا عَجَمُ

فالقيسي، من بداياته، وبواكيره، شاعرٌ تمتلئ قصائدهُ بالأحاسيس التي تشدُّ إليها القارئ شدًا، فهو يعبر تعبيرًا قويًا، صادقًا، عما يمور في سويداء القلب، ودخيلاء النفس، ولا يتشدَّقُ بالألفاظ كغيره من أنصاف الشعراء، وأشباه المبْدعين، يقول في إحدى بواكيره عما يعانية من شعور بالحزن، والمرارة، وأنه لا يفتأ يقاسي آلام الانتظار؛ انتظار العودة إلى وطنٍ لا يدَ له في التخلي عنه، أو الهجرة منه، أو الرحيل إلى غيره، فهاجسُ العودة من المنفى هاجسٌ يعذب الشاعر، ويقلقه، ويجعل من الأسى غذاءه اليومي، ومن شعوره بالضياع، والإحباط، والحيرة، شعورًا لا يزايله (الوافر):

أحبّائي

يمرُّ الليلُ عنْ جفني ويسْألني

حزينٌ ساهرٌ تشكو من الأيام والمِحَنِ

متى تشفى من الشَجَنِ؟

سؤالُ الليل يؤلمني
ويحزنني
لأني كل ما أدْريه أني بتُّ منفيًا
وأني لم أزلْ حيا
تعذبني وتقلقني
طيوفُ الأمسِ والذكْرى تعذِّبُني
فأجترُّ الأسى والصمت والحيرة[2]

ثلاثة أشياء- إذًا - هي التي تجعلُ منه كائنا كلُّ ما فيه هو المعاناة، وهي: الأسى، والصمت، والحيرة. على أن الحزن هو الإحساس المُهيْمن على أشعاره، المبكرة، فإذا سمع الشاعر أغنية تُبثُّ من مذياعٍ ما تتحدَّث عن الوطن، فاضت نفسه بالأحزان، وانثالت الأشجان في عروقه عذابًا تارةً، وتارةً هوْنًا، وطورًا شعورًا قاسيًا بالحرمان (المتدارك):

أغنيةٌ
تسْكبُ في قلبي الأحزان
جمعتْ في بيدر إحساسي الأشجانْ
وانثالتْ في روحي
شلالاتُ عذابٍ وهوانْ
وأنا والقلبُ وأهدابي
نجترُّ الحزنَ
ونقتاتُ الحرْمانْ [3]

يلحُّ القيسي في بواكيره على مُفْردة "الحزن"، فما من قصيدة له في ديوانه الأول " راية في الريح "، الذي يضمُّ قصائده المبكرة، تخلو من هذه المفردة، التي لها ألقٌ خاصٌ في شعره. فهو، وإنْ حاول أن يخفي شعوره بالحزن، وأن يطويه في أغوار نفسه، ويغيّبَه عن أعْين الآخرين، وأسْماعِهم، إلا أن شعره الذي يقوله، معبرا فيه عن ذاته، سرعان ما يسلط الضوء على هذا الحزن، ويخرجُه من عتمة الخفاء إلى ألَقِ التجلّي (الوافر):

وأوغلُ في متاهاتي
أواري الحزْنَ في طيّات أغواري
وأطمُر في رمالِ الغيْبِ أسْراري
على شفتيَّ قد صَلبوا جَنين الحرف
أهانوا عفَّة الكلمة
أرادوا الموت للكلمة
أرادوا الصمت للشاعر
وما حَسِبوا بأنَّ الحرف بحرٌ ما له آخر
وأنَّ المجدَ للشاعر [4]

فالحزْنُ الذي يحاول القيسي إخفاءَه، في أغواره، ليس مجرَّد شعور، وإحْساس، كالذي تمتلئُ به نفس الإنسان العادي حين يمر بتجربةٍ لا تخلو من الفاجِع، وإنما هو حزنٌ مسْئول، يضطربُ مثلما تضطرب مشاعر المقاتل، أو المناضل، وهو يتأهَّب لخوض معركةٍ ما، لذا يتعَرَّض هذا الشعور لمحاولات هدفها إخماده، وذلك كي لا ينفجر فجأة في وجوه الاحتلاليين، انفجار قنبلة موقوتة، أو لغَمٍ يوشك أن يثور. وأما قول الشاعر " وما حَسِبوا .. " و " أنَّ المجد للشاعر " فقولٌ يؤكد فيه أن

الإخفاق الذريع هو مآل هاتيكَ المحاولات، ومصيرها الحتمي. وليس للحزن عند القيسي وقتٌ معيَّنٌ، أو زمن محدَّد، فهو لا يفتأ يتجرعُ مرارة هذا الإحساس منذُ وعاه، وعلى مدار العمر، بلياليه الطوالِ، المتكرِّرة(الرجز):

يا ويل أعمارنا
من طول ما نسير
في دربنا المُغبَّر الحزينْ
في ليلنا الطويلْ[5]

وليسَ لهذا الحزن مكانٌ خاصٌ، أو فضاءٌ معيَّن، يستطيعُ الحزين، بمغادرته، أنْ يقصيَ من أعماقه هذا الإحساس، وإنما هو حزنٌ يلاحق الحزينَ أنّى سار، وأيّانَ استقرَّ، وكان. فحيثما تلفّت الشاعر ألفى أصدقاءَ، وأصحابًا متفرقين، تتجسد المأساة في نظراتهم، وعيونهم، صورًا خطوطُها الحزن، وألوانها الألم المبرّح، العميق، فهو حزنٌ يتجاوز انتشارهُ حدود المكان، مثلما يتجاوزُ أيضًا حدودَ الزمان (الكامل) :

تتلفَّتُ العينان حولي
لا أرى
إلا صِحابًا – ها هنا – متفرقين
تتجسد المأساة في نظراتهم ،
صورًا من الأحزان، والألم الدفين
ويروح يمخُر في عباب البحر،
مركبنا الحزينْ
ونظل نغرقُ في دياجير السنينْ [6]

لا الليلُ وحْدَه، ولا عتمة الدياجير وحدَها، هو ما يظلِّلُ حياة الشاعر بالكآبة، والأحْزان، فحتى الريحُ تلاحق الشاعر، وتلاحق رفاقه المشتَّتينَ، بالحزن، كأنما تضيق عليه الأرض بما رحُبَتْ، فلا يستطيع التفَلُّت، لا هو، ولا الرفاق المتعبون، من هذا الإحساس العميق، والألم المستبدّ اللصيق، ولذا نجدهُ- من باب المفارقة - يتلذَّذ بالحزن، منتشيًا بالألم، فهو لا يفتأ يُكرِّر ذلك (الكامل):

الريح تركض خلفنا
وتصبُّ لعنتها
ويمضي الركبُ
يوغلُ في مَفاوز غرْبة الحزْن العميقْ
يا حاديَ الأحزان نحنُ بلا دليلْ
ضاع الطريق
ضاع الطريق [7]

في المرحلة التي سبقت الخامس من حزيران – يونيو 1967 وقبل ظهور المقاومة علنًا، بعد أنْ كانتْ قد ظهرت سرًا في العام 1965، ظلَّتْ ذخيرة الشاعر الفلسطيني- دوْمًا- فيْضًا من المشاعر، والإحْساسات، التي يغلب عليها الأسى، ويكتنفُها الحزْن والألم. ولذا لا نعجب إذا وجدنا القيسي يكرِّر مفردة الحزن كثيرًا، والحسْرة، والأسى، والخيْبَة، والمرارة، والحيْرة، ففي قصيدة له بعنوان " المصلوب " وهو - ها هنا - اللاجئُ الفلسطيني بلا رْيب، يقول الشاعر(الوافر):

لأني حينما أبحرتُ في عينيْكِ كان الحزْنُ موالي
وكان الجرح في أعماق أعماقي
ينزُّ دمًا،

ويروي ذلّ مأساتي.
لأن الخيبة السوداءَ كانتْ كلّ ما جمّعْتُ،
قبْضَ الريح كانَ حصادُ ماضينا،
تكوَّمْنا على قشّ الحصير نلوبُ بالحسرة.[8]

فكلماتٌ، من مثل: الحزن موالي، الجرح، الدم، الذل، مأساتي، الخيبة السوداء، قبْض الريح، الحسْرة، توحي بهاتيك الأجواء القاتمة، التي تحيطُ بالشاعر إحاطة السِوار بالمعْصَم، وهو يعبّر عنها في لوحة تتَّسعُ لكلِّ هاتيك البُقع الكامِدَة، وهذا الحزنُ الذي لا يحول بين الشاعر القيسي ورؤيته لما يجري على الأرض، فهو دائم الالتفات إلى الأهْل في فلسطين، لا ينى يتذكرهم، ويخاطبهمْ، في شِعْره الشجيّ، مشيدًا بصُمودهم، ومقاومتهم للاحتلال الفاشي، وهو يراقبُ بحدْسِهِ الخطّي تعبُر النهر غربًا، وتحاول أن تفجّر الأرضَ تحت أقدام المُحتلّين، لتمْحوَ من النفوس ما تراكمَ فيها عبرَ سنوات القهْر، والحزْن، من عذاباتٍ، فقصيدتهُ هذه تشقُّ طريقها في ليل الاحْتلال، سلاحُها- فضلا عن الكلِمَة- تكريس الشهادة، وتلبية نداءِ الأرْض (الوافر):

وأرقبُ يا أحبَّائي
خطاكمْ، وهي تعبر ضفة النهْرِ
وفي عينيَّ أحملُ ما بأعيُنِكُم
من الأحزان والقهرِ
فمي سدٌّ أمام تفجُّر الكلماتْ
تعذِّبُني من الأعْماقْ
تغرسُ شوكَها في قلبيَ الدامي

فيا عاري
إذا ما زالتِ الكلماتْ
سلاحي، والطريقُ علامةٌ حمراءْ
فكيْفَ أصمّ آذاني
وأقعُدُ عنْ نداء الأرضِ، والشهداءْ
وفي عينيَّ إصْراري [9]

يبدأ الشاعرُ، من هنا، اتجاهًا جديدًا في بواكيره، اتجاهًا لا يتخلّى فيه عن الحزن، ولكنه يضيفُ إلى صور الأسى، والحَسْرة، والألم، صورًا أخرى جديدة، كالتخلّي عن سلاح الكلمة وَحْده، لأنه لم يعد كافيًا، والاستجابة لنداء الأرض، ونداء الشهادة، والإصْرار على رؤية ما ينبغي للإنسان أنْ يقومَ بهِ في ضوء هذا الواقع الجديد الذي انبَلَج فيه فجْرُ المقاومة من ليل الاحتلال البغيض. ولئنْ كانت لغة الشاعر، سابقًا، تموجُ بالحنين إلى الديار ذاتِ الحدود الموصَدَة، والأسوار الشائكة المتعدِّدَة، فإنّ في الطيْر، الذي يرمزُ بعودته لما يشبه عودة اللاجئ بعد الفراق، تعْويضًا عن ذلك، وتخفيفًا من الشعور بلوْعة النفْي (الوافر):

بالله يا طير الحيّ إنْ جيتْ دارنا
ريّضْ ألا يا طيرنا وارتاحْ
قلْ لها بحال الجهل يا طولْ عزنا
يا ما قعَدْنا عَ الفراشْ صْحاحْ
يا مِنْ درى يصفا زماني وأعاتبو
وأعاتبو ع اللي مضى لي وراحْ
وَيَزْدادُ الحنينُ، ويقطرُ المِوّالُ أشجانا [10]

فهذه النغَمَة الشجيَّة ما فتئت أنْ خَلَتْ منها بواكيره التالية، إذْ تواترتْ في قصائده الإشاراتُ للشهيد الذي لم يمتْ، وللدم الزكي الذي يُراق، والذي لم يُرَقْ، وللعاصفة التي تكنِسُ عن الغصون الأوراق الزائفة المستعارة.. وها هو ذا يستذكر المشيّعين لشهيد المقاومة، وهم ينشدون أبياتًا من الشعر الشعبي المتداول في مواكب الشهداء:

طلَّتِ البارودة والسَبِعْ ما طلّ
يا بوز البارودة من الصدا مبتلْ
بارودة يا مْجوهَرَه شكّالك وينْ ..
شكالك عَ عاداتو سَرى في الليل
شكالك عَ عاداتو سرى مِصْباحْ [11]

فهو - إذًا - طَرِبٌ لهذا التغيير، فرحٌ بهذا التطْوير، ولكن، أيمكن أنْ يتحرَّر شعرهُ من نغمة الحزن، وتراتيل الشجَن؟ مَنْ جُبل، في الحقيقة، على هذا الشعور، وفُطر على هذا الإحْساس، من الصعب أن يتخلى عنْهُ، ولذلك ظلَّ شعره" المقاوم" حافلا بذاكَ الجرْس الحزين، والشجَن المفْعَمَ إلى حافَّتِهِ بالحنين، فهو لا يفتأ يتصوَّرُ الحزْن نبتة راسِخَةَ الجذور، والشروش، في كيانـــــهِ

العضوي، كشجرة ضاربة في أغوار التراب، سامقةٍ في عَنان السماء والسَحاب، وهو- في هذه الحال- لا يقتصِرُ على كلماتٍ تتردَّدُ من حين لآخر (الرمل):

والذي أحضرني اليوم هنا
كانتْ رصاصة
أخطأتني أمس أثناء العبور
حين تابعنا المسيرة

زنبقاتُ الحزْن في قلبي
يعانِقْنَ الظهيرة[12] .

فالقيْسي، الذي فارَقَنا في الفاتح من شَهْر آب- أغسطس 2003 شاعرٌ حزينٌ بالفِطرة، شجيٌّ بالوراثةِ، فلقد استُشْهدَ أبوه عام 1948 ولما يتمّ الرابعة من عمره، ورثاه في قصائد عدة استعاد فيها صورة الشهيد، وتكرَّرَتْ تلك الصورة في أشعاره، وفي السِيَر، التي كتبها عن ذكريات اللجوء، والطَّرْد من المكان، وعذاباتِ النَفْي، التي تعرَّض لها طفلا، وتعرَّض لها شابًا، ومُكْتهلا، والمنافي التي تقاذفته من هنا إلى هناك تقاذفَ الكُرة بين أقدام اللاعبين، لذا، لا غرْوَ إنْ وجدنا في أشعاره للحزن هذا الحضورَ المستمرَّ، اللافتَ، ولقد صحَّ عليه،وصدق، وصفُ الشاعر البارع المرحوم أحمد دحبور (1946- 2017) في إحدى المقالات " بـ " غِرّيد الحزْن الموزون " [13].

الهوامش

1.السياب، بدر شاكر، شناشيل ابنة الجلبي، ط3، بيروت: دار الطليعة، 1967 ص ص130-131

2.القيسي، محمد، الأعمال الشعرية، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987، ص ص 14- 15

3.السابق، ص 17

4.السابق، ص 21

5.السابق، ص 26

6.السابق، ص 32

7.السابق، ص 33

8.السابق، ص 42
9.السابق، ص ص 58- 59
10.السابق، ص 64
11.السابق، ص 81
12.دحبور،أحمد: غريد الحزن الموزون ،الموقف الأدبي، دمشق،ع 77، س 1977
*وهذا الفصل مستخرج من الدستور الثقافي 3 آب 2018.

الفصل الثاني
فضاء الموت في شعره

توطئة

في كتابه "اتجاهات الشعر العربي المعاصر" تجنب الراحل إحسان عباس تناول مواقف الشعراء من الموت، خلافا لما فعلته نازك الملائكة في كتابها " قضايا الشعر العربي المعاصر" فقد أفردت فيه فصلا للحديث عن مواقف الشعراء من الموت، مؤكدةً أن الشاعر الحديث يختلف عن الشاعر القديم اختلافه عن الشاعر المحافظ في موقفيهما من الموت،مما يُحتّمُ على الدارس- أيًا كان- أن يدرج حساسية الشاعر الحديث، والمعاصر، تجاه هذا الموضوع في سلسلة من المتغيرات الجديدة التي تشمل بنية القصيدة شكلا ومحتوى.

وقد بات واضحًا أن الشاعر القديم اتسم موقفه من الموت بالسذاجة، والبساطة، ولم يتطرق لذكره إلا في باب الرثاء، والمواعظ، وذهب بعضُهم للقول بأن الرثاء مثلُ المديح، إلا أنه يقترنُ ببعض التعبيرات التي تدل على فقدان الممدوح، وقلَّ من الشعراء من ينظر للموت نظرة مالك بن الريب، الذي لخَّص في قصيدته المشهورة فلسفته البسيطة حيال الحياةِ، والموت[1]، واكتسب موضوع الموت في الشعر الحديث حرارة أقوى، وعناية أكبر، من لدن الشاعر. فها هو أبو القاسم الشابي يخصِّص في شعره قصائد كثيرة لموضوع الموت، ليست فيها قصيدةٌ واحدةٌ في الرثاء. وإنما هي قصائدُ تمتزج فيها رؤيته للموت، بتجربته المريرة في الحياة.

مما يُضفي على موقفه هذا مِسْحة وجوديَّة، عدميَّة، وأخرى كئيبة، تجعله واحدًا من غلاة الرومانسيّين في الشعر العربي (الخفيف):

جفّ سحرُ الحياةِ يا قلبيَ البا

كي فهيّا نجرّبُ الموْتَ، هيّا [2]

ومن المفارقات التي تجتذبُ انتباه القارئ أنَّ موضوع الموت يأتلف في شعر الشابي مع موضوع الحبِّ، على الرغم من بعد الشُقَّة بين الاثنين، ففي قصيدة بعنوان " تحتَ الغُصون " نجده يخاطب الحبيبة، ويحثها على الغناء، بكلماتٍ تقطر أسىً، لا يفرّقُ فيها بين الأمل، واليأس، أو بين الحياةِ، والمنون (الخفيف):

فلمن تنشدينَ؟ فقالتْ

للضياء البنفسجيّ الحزينِ

للشبابِ السَكْران، للأمَلِ المَنْـ

شودِ لليأسِ ، للأسى، للمنونِ [3]

أما الهمْشَريّ، فإن إحساسه بالموت أكثرُ ظهورًا، وتميُّزًا، منه عند الشابي، ويكادُ يصل مرتبة تقرُب به من شعور جون كيتس Keats فما من حادثٍ يذكرهُ في شعره إلا ويرْتبط بالمــوت، وسعادة الرجوع إلى قريتهِ إنما تكُمن في أنه يستطيع أنْ يموتَ، ويدفنَ، في تربتها المخْضَوْضرة، وهو قريرُ العين (الطويل):

أموتُ قريرَ العين فيها منعَّمًا

يخدّرني نفحٌ من المَرْج عاطرُ [4]

فالخريرُ الذي يتصادى في مسامعه، وهو في طريق رحيلهِ الأبديّ، يمثل جزءًا من رؤية الشاعر للحياة التي تنطوي في داخلها على نقيضِها الموْت (الطويل):

وآخرُ ما أصْغي إليهِ منَ الصَدى

خريرٌ يغنّي، وهو للمَوْتِ صائرُ [5]

ولقد تطرَّق كثيرون لموقف السيّاب من الموت، ولا يوجد باحثٌ، أو دارسٌ، عُني بشعره، إلا ولهُ وَقْفة، إنْ لم تكنْ وقَفَات، إزاء هذا الموضوع. فالسيّاب أثر فيه الموت كثيراً جدًا. موتُ أمه أولا، وهو صغير، فقد ظلَّ يذكره مرارًا، وتكرارًا، في شعره، ولم يكتف بتأثره لموتِ الأم ، ولكنه أيضًا واجه موته هو في الكثير من شعره، قبل أنْ يُفارق الحياة، يقول في إحدى قصائده(متدارك):

عكازٌ .. بل عكازان

تحت الإبطين يعينانِ

جسْمًا من أوجاع يفنى

طلَلا يغشاه مسيل دمِ

وأسير أسير على قدمي

لو كان الدرْب إلى القبر

يمتد أمامي في أقصى أركان الدنيا في نحري..

لسعيت إليه على رأسي

وعلى هدبي وعلى ظهري [6]

وفي سَوْرة الألم يصرخ السَيّابُ المريض مستعجلا موْتهُ، مؤكدًا أنه بالرحيل يتخلص من عذابه، ومن آلام جسده المهيض، وأوجاع الروح (رجز):

منطرحًا أصيح، أنهشُ الحجار

أريد أن أموت يا إله!! [7]

وحين يشتدُّ عليه الداء، وتستبد به العلةُ، مع تعذُّر الدواء، ويغدو أدنى إلى الموت منه إلى الحياة، يختلفُ الأمْر، فيعبِّرُ عن شوقه لها – أيْ: الحياة- مذكّرًا بموقف مالك بن الريب(المتقارب):

كسيحٌ أنا اليومَ كالميتينْ
أنادي فتعوي ذئابُ الصدى في القفارْ
كسيحٌ كسيحْ
وما منْ مسيح[8]

والموتُ لدى السياب يمثل تحديًا للحياة، ونفْيًا لإرادة الاسْتمرار، والبقاء، لذا يحاول أن يستغلَّ اللحظات الأخيرة، والدقائق المتبقية من عمْره، ليكتب ما يجول في خواطرهِ، قبل أن تتوقَّفَ أنفاسُه، وتعْجِزَ يدُه عن تحريك القلم فوق الأوراق، فهو يخاطبُ خياله الشعريَّ قبيل أن تصْعَد روحه للبارئ ، ويحثه على اغتنام ما تبقَّى من العُمْر، مستجيبًا لرغبته في توقف عجلة الزمان عن الدوران، واستهال الموتِ حتى ينتهي من كتابة قصيدتهِ الأخيرة (الوافر):

سأعجزُ بعد حينٍ عن كتابة بيت شعرٍ في خيالي جالْ
فدونك يا خيالُ مدىً وآفاقٌ وألفُ سماءْ
وفجِّرْ من نجومك، من ملايين الشموس،
من الأضواءْ
وأشْعلْ في دمي زلزالْ
لأكتبَ قبْل موتي، أو جنوني،
أوْ ضمور يدي من الإعْياءْ
خواجَ نفْسي، ذكْرياتي، كلَّ أحْلامي

وأوْهامي

وأسفحُ نفْسيَ الثكْلى على الوَرَقِ [9]

ولخليل حاوي موقفه هو الآخر من الموْت. ففي " الرحلة الثامنة " نجد صورة تجسّدُ توق الشاعر للتغَلُّبِ على لحظات الاحتضار، وقهر الزمن (رجز):

وَسوْف يأتي زمنٌ

أحتضن الأرضَ وأجلو

صدْرَها، وأمسحُ الحدودْ

ويزيد هذا وضوحًا في قصيدة " لعازر 1962 ". ويمزج أحمد عبد المعطي حجازي موقفه من الموت بموقفه من الاغتراب، وموقفه من المدينة، وما يُشْعرُه فيها من إحساسٍ بالضياع، والوَحْدة. فالصبي الذي يموت تحت عجلات السيارة المسرعة، لا يجد من يعرفه بين المارَّة، ولا من يبكي عليه، ذارفًا دمْعةً واحدة:

والتقت العيونُ بالعيون

ولم يجبْ أحدْ

فالناسُ في المدائنِ الكبْرى عدَدْ

جاءَ ولدْ

ماتَ ولدْ

وعندما ألقوهُ في سيَّارةٍ بيضاءْ

حامَتْ على مكانهِ المخضوبِ بالدماءْ

ذُبابةٌ خضراءْ[10]

ولنازك الملائكة قصائد عدةٌ تفصحُ فيها عن موقفها من الموت، منها " مرثية امرأةٍ لا قيمة لها " التي تعبّر تعبيرًا واضحًا عن شعورها بالألم إزاء موت امرأة لم

يشكل موتُها إلا نبأ سرعان ما ينْساهُ الآخرون. وهي في قصائد أخرى تشير إلى قدر الإنسان الحتْميّ، ممثلا بملاحقة الموت له من خلل دوْرة الزمان (الرمل):

ما الذي تصطادُ في بحر الزمنْ

وغدًا يصطادُكَ الدهر العتيّ

نحنُ يا صيادُ أبناءُ الشجَنْ

حقّ محيانا الشقاءُ الأبديّ

وهذا الموقفُ يربط فكرة الموت بموقف الإنسان من الوجود، وشقائه الأبديّ، وشعوره بدنوّ مصيره المحتوم الذي كتب عليه، فهو يترقَّبُ بقلقٍ لحظة الرحيل:

فيا صاحبيْ رَحْلي، دنا الموتُ، فانزلا

برابيةٍ، إني مقيـــــــمٌ ليـــــاليا[11]

فضاء الموت في شعره

أما الموت في شعر القيسي، فقد برز في أول ديوان، وهو ديوان" **راية في الريح** " 1968 ولا سيما في قصائده "كفر عانة البعيدة " و" المصلوب " و " الصمت والأسى " وغيرها الكثير مما لا يتسع هذا الموقع لذكره. على أن تركيزه على فضاء الموت يبدو أوضح ما يكون في كتابه الشعري – النثري " **ثلاثية حمدة** " (1997) الذي جمع فيه بين النثر والبكاء الموزون.والسيرة..ومزج فيه نصوصا مختلفة التصنيف كالمواويل، والأغاني، والاعترافات، والمقطوعات المجتزأة من الأساطير.. والشعر السامي القديم، ليخرج من هذا كله بموقف شامل، وعصيّ، من الموت. يقول في فقرة من الكتاب مستذكرا مصرع أبيه خليل القيسي " لا أعرف في أي ساعة من ذلك المساء مات أبي. رأيته في صحن الدار النهار الفائت بعد عودته من المشفى

بيافا متعبًا ليموت بيننا، وقد أمال رأسه ناحية كتف أمي حين صار في " الحوش "وتنهد موجوعا بصوت مسموع ثم راح يحكي:

– الولد يا حَمْدة

بوهن لكن بحزن، وراح يسرد تعاليمه الأخيرة على أمي. وهي ترتجف. ومات ، مات تمامًا. ظللت أرفض أن أصدق موت أبي.. وأنني لن أراه أبدا. كنت إذا رأيت رجلا مقبلا لا أعرفه أقول: ربما يكون هذا الرجل أبي.. كنت أهجس دائمًا بهذه العودة – عودة أبي- وظلَلْتُ أحلم بهذا المشهد، وطال انتظاري. " [12] فهو في المشهد السابق يذكرنا بقصيدة " الدار" وهي من قصائد ديوانه " **شتات الواحد** " 1986 ففي أثناء القصيدة تنبثق الذكرى فجأة فيما هو يتحدث عن قرميد الشرفة، وعن النافذة، وعن باحة الدار، والباب (المتقارب) :

ومنها تطلُّ وتَنْدَهُ أمي
على إخوتي
ومنها يصيح أبي
يا محمَّد تعال ، فقد صادني الإنجليز أخيرًا
تعال، فإنّي سأذهب [13]

وما بين الذهاب، والإياب، وحضور الشاعر طفلا قبل أن يصبح شاعرًا، تتلاحق حلقات الموت، وتطَّردُ، واحدة إثر الأخرى، فلا يكفي أن تموت مشاعر الطفولة في القيسي المهجَّر من بلده، الباحث مع أمه عن ملاذ وسط القرى، وعن مأوى. ولا يكفي أن تموت في نفسه الذكريات- ذكريات القرية البعيدة- ولا ذكرى الأخت التي أصبحت تعيش في اللد، حيث لا يستطيع أحد أن يزورها، أو يراها،

أو يعرف عنها خبرا. ولا يكفيه أن تموت في نفسه جُلُّ اللحظات الجميلة التي يمكن أن يدخرها ابن الرابعة لأيامه القادمة، بل سرعان ما جاء طارقُ الموت، هازم اللذات، ومفرق الجماعات،ليخطف أخته زكية، هذا الموت الذي كان يمكن أن يكون قدرَهُ هو، لولا الصدفة التي جعلتها تتقدم عليه، وتتجرع البنزين ظنا منها أنه يُشفي من المرض، ولهذا يعد الشاعرُ حياته بعد موتها ذنبًا اقترفه، وجرمًا ارتكبه، يستحق أن يطلب لنفسه بسببه المغفرة ، ولكنْ ممَّن:

اغفري لنا يا زكية
اغفري إنْ نسينا أو أخطأنا
اغفري يا أختنا المباركة
أنْ دفناك في ثياب الطفولة
كما دفنا مشاوير الزعتر والزبيب
وذهبنا
اغفري لنا هذه الحياة بعدكِ (14)

فحياته إذا، ووفق هذا الاعتراف، ليست من حقه، والأيام التي عاشها بعد شقيقته زكية دينٌ لها عليه، فهو ميْت، أو مشروع ميْت، بكلمة أدقّ، وإذا كان الزمن قد أتاح له أن يحيا، وأن يتحرك هنا وهناك، فإنّ شبح الموت يطارده من مكان لآخر، ومن لحظة لأخْرى:

يا قبرها الذي لا أراه
يا مريولها المدرسيَّ الفقير
تتبعني من تلك الساعة
ويتبعني وجهُها

بعد كلِّ غبار
تتبعني الكرة القماشيَّة
وكراريس السنة الأولى
أينَ هو كتابُ القراءةِ الرشيدة؟
والدرس الثاني من المحفوظات؟ (15)

تبدو هذه التفاصيل، على صغرها، في القصيدة النثرية مهمَّة جدًا، لأنها تريد أن تستحضر روح الفتاة التي أصبحت بعيدة عن الشاعر، حيث قبرها الذي لا يراه، يستحضرها بمريولها المدرسي، وبدفاترها الصغيرة، وكتاب القراءة الرشيدة، مازجا طفولته هو، بطفولتها هي، على الرغم من المسافة الكبيرة التي باتت تفصل ما بين الحي والميت. وما هي إلا حقبة قصيرة حتى يكون القيسي على موعدٍ آخرَ مع الموت. " بهيَّة على فراشها تموت الآن.. قبالة باب الفرن.. وتخلع قلب أمي. وأضلاع زوجها.. كيف أستعيدك وأكفِّرُ عن ألعابي.. ولهوي البريء. ما الذي يفقدك النطقَ يا بهية؟ " بهذا الحديث الذي يستعيده الشاعر في" **كتاب الابن** " يتحقق لنا إحساسه بملاحقة الموْت له، ولعائلته، من جهة، وشعوره بالذنب، لا لشيء إلا لأنه لم يمت كغيره، فأيُّ مفارقة هذه التي تتجلى في أن تكون مذنبًا لأنكَ حيٌّ:

أدور من فلَكٍ إلى فلَكٍ
يتيمًا بلا قناديل
جائعًا إلى كتابكِ هذا
دون وثائقَ، أو مستنداتٍ
ترتكز إليه لغتي
وتُضْفي عليَّ

طابع التوْبةِ واليقينْ [16]

حتى إذا ما اكتملت دورة الموت، واخترمت المنية سيدة الحبايب " حمدة" أم الشاعر، فلنْ يتبقى بعيد ذلك شيء مما يؤسف عليه في هذه الحياة. تغدو الحياة بلا مذاق، وبلا نكهة، فلا يبالي الكائن في أن يموت قريبا عاجلا، أم بعيدا آجلا. فهو في احتضار دائم ، وموت موصول بموت آخر. موت في الرصيفة، وآخر في اللد، أو في الجَلَزون.. أمكنة متباعدة تصل بينها طريق واحدة، هي طريق الموت:

لأحك طويلا
عن غياب الدرّاق
وموت أمي
هي أوَّلُ الفَزعِ
في الطريق إلى اللد [17]

وموتُ الأم، الذي هوذروة الماساة، يكشف عن شيخوخة الشاعر قبْل الأوان، وعن اقتراب مؤتهِ، وإنْ ظلَّ يدبُّ دبيبًا بين الأحياء:

ليحضروا جميعًا
ويروا فروة رأسي البيضاءْ
وكيف آلت بي المراكب أخيرًا
ومالتْ أغنية الربّان
ليحضر هؤلاء
ليحضروا كي أتكلمْ
ليحضروا كي أبكي
وتتسع الجغرافيا لشتاتي [18]

يحسُّ القيسي بالعالم من حوله، وقد أصبح خاليًا، فارغا، فموتها يفقد الابن الإحساس بالأشياء، والإحساس بالزمن، وتفقد الفصول ترتيبها الطبيعي، ويغدو موتها مؤتهُ هو، وبعدُها بعدَهُ هو (الرمل):

لم أمت قبلكِ من قبلْ
لم أمت من حرْبةٍ أوْ غُربة
حتى أراك،
لم تشيّعْني إلى الشمس يداك
ولذا ظل نهاري يائسًا
دون حراك[19]

وعلاوة على فقدانه الإحساس بالزمن، والمكان، فقد أيضًا القدرة على الرؤية، ففي بصيرته تتساوى كل الألوان، فالسرير أبيض، الكفَنُ أبيض، والجدران بيضٌ:

فالصمت أبيض
والجدران بيضاءُ بيضاءْ
ككلكِ بيضاء
والموتُ أبيض [20]

ولأن أثر الكارثة في نفسه على هذا النحو من الفجيعة، فقد راح – شأنه في ذلك شأن السياب- يتعجل الموت، بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فرثى نفسه على أنه مات فعلا بموتها هي:

أنا ابنك هذا
ابنك الميّتُ غيظا من الموت
أيتها العربة البيضاء الغاصَّة

بالأزهار، والتلاوة،
أين تذهبين بيومي؟
وأين تذهبينَ
بالعروس التي فاتها زفافي؟[21]

بهذه الكلمات يودّع القيسي يومه، ويودع نفسَه، بوداع العربة التي تغصُّ بالأزهار، وتضج بالتلاوة، فموت الأم إذاً هو موت الابن – الشاعر- والبكاءُ لم يعد يجدي، ولا يشفي:

بعد قليل،
يصيب أيامي العَطَبُ
وعَكِرا يسيل دمي إلى آخره
بعد قليلٍ
تجيء المواكبُ
فأينَ أذهبُ بي؟ [22]

هكذا نجدُ القيسي يواصل حياته في الوقت الضائع أيْ: في الزمن الزائد عن الوقت المخصَّص للعبة حسب القاعدة. فبرحيل الأم يفقد شعوره بالحياة، وبكنه الأشياء، ويحسّ بأنه ينزف حياته قطرة قطرة، ويهترئ نسيج عمره خيطا بعد خيط. ويندلق ما تبقى من رحيق الماضي حتى يمتزج بتربة القبر الذي أودِعَتْ فيه الأم " حمدة " فهل من وقتٍ يتبقَّى لِلَغْو الرثاء؟ قد تكون المقاطع الكثيرة التي يبثها الشاعر في قصائده عزاءً يستعيد به بعض اللحظات القصار التي تقربه من الأم جسدًا نابضًا بالحياة ، ووشما معمَّقًا مرسومًا في شغاف القلب، وعلى أجْنحة الروح.

الهوامش

1.القرشي، أبو زيد بن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب، ط2، تحقيق محمد الهاشمي، ط2، دمشق، 2/ 759

2.الشابي، أبو القاسم، ديوان الشابي، ط2، بيروت، دار الأرقم، 1997 ،ص214

3.الشابي، نفسه، ص 129

4.الملائكة، نازك، قضايا الشعر المعاصر، ط3، بيروت: مكتبة النهضة، 1967، ص 274

5.السابق نفسه، ص 274

6.السياب، شناشيل ابنة الجلبي، ص118

7.السابق نفسه، ص 118

8.السابق، ص 135

9.السابق، ص ص 121- 122

10.حجازي، أحمد عبد المعطي، مدينة بلا قلب، ط1، القاهرة: دار الكاتب العربي، 1968 ص134

11.القرشي، جمهرة أشعار العرب، مصدر سابق، 2/ 762

12.القيسي، محمد، ثلاثية حمدة، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1997 ص ص 141- 142

13.نفسه، الأعمال الشعرية، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1999، جـ2، 235

14.نفسه، الأعمال الشعرية، جـ2، ص 239

15.نفسه، ثلاثية حمدة، ص43

16.السابق،ص 45

17.ثلاثية حمدة، ص58

18.السابق، ص 30

19.السابق،ص 15

20.السابق، ص 18

21.السابق، ص 22

22.السابق، ص 23

الفصل الثالث
النص الموازي والتناص

من المفاهيم النقدية التي ظهرت في القرن الماضي مفهوم التناصّ، وأوَّلُ من تحدث عنه هو الناقد الروسي باختين الذي أشار إلى الظاهرة دون أن يتوصل إلى وصفها بالمصطلح، خلافا لما تجلى في أعمال جوليا كرستيفا في سلسلة من المقالات نشرتها بين عامي 1966 و 1967 أوضحتْ فيها أنَّ التناصَّ: هو سياق " إشاري ينتظم لغة النص الأدبي " [1] وجاراها في ذلك نقاد كثيرون ، منهم رولان بارط ، وتودوروف، وجيرار جانيت. وذهبوا كلهم إلى القول بأن كل نص أدبي إنما هو " لوحة فسيفسائية من الاقتباسات والتضمينات "[2] وقد تلقف النقاد العرب هذا المفهوم كعادتهم في تلقف جلّ ما يأتي من الغرب، واستخدموه في نقد الشعر خاصّة. وذلك لكثرة ما في الشعر الحديث من الاعتماد على نصوص أخرى .[3]

وظهرت كتبٌ عدة استخدم فيها مؤلفوها هذا المصطلح، منهم محمد مفتاح الذي وسم كتابا له بعنوان تحليل الخطاب الشعري؛ استراتيجية التناص . وحسين حمزة الذي صنف هو الآخر كتابًا في التناص عند محمود درويش سماه " مراوغة النص " وأحمد الزعبي الذي صنف كتابًا مماثلا بعنوان " التناص في شعرمحمود درويش " وكتب كثيرون مقالاتٍ ودراساتٍ وأطاريحَ جامعيَّةٍ حول هذا المفهوم، سواءٌ من حيث التنظير، أو التطبيق ، في القديم، أو الحديث .[4]

ومن يقرأ أشعار القيسي بدءًا بديوانه الأول راية في الريح 1968 وانتهاءً بديوانه " منمنمات إليسا " 2002 يكتشف كثرة ما فيها من الإشارات المباشرة وغير المباشرة لنصوص أخرى قديمة، أو جديدة، ولحكاياتٍ، وأغانٍ، ولأساطير، ونماذج تاريخية مما يجعلُ أشعاره نموذجًا مثاليًا لدراسة هذه الظاهرة، التي تمثلُ، في الحقيقة، بعديْن في العملية الشعرية، أولهما يعود إلى الإبداعيَّة، وهي الشهادة بأصالة الشاعر، وإفادته من خبراته، وثقافته اللغوية، والأدبية، والتاريخية، والمثولوجية. والثاني هو مراعاته لمسألة التلقي؛ لأن تعبير الشاعر عن أحاسيسه، ومشاعره، بلغةٍ يعرفها القارئُ، من خلال رصيده الثقافي، والمعرفي، تيسّر عليه عملية الاستجابة، وتزيد من إحساسه بشعرية الوضوح، مقابل الزوايا الظليلة التي تتضمَّنُها القصيدة. فالإشارات المقتبسة فيما يُـعْرف بالتناص تضيءُ ذلك الجانب، لذا كان التناص في شعر القيسي يسير في خطين متوازيين، التناص الخفيّ، وهو الذي لا يحيل فيه إلى نصّ معروف، والتناصّ الصريح، وهو الذي يحيلنا فيه إلى نصّ معروف، ويمكن أن نسميه ها هنا النصّ الغائب. وتتم الإحالة عادة إما باستعارة شيء من النص بلفظه ومعناه ، كقوله (الرمل):

وأنا أرقب أن تأتي ولكنْ
خانني التوقيت في هذي المدينة
أعرضت عن وجع اثنين مضاعينِ
أسيرٍ، وأسيره
زنبقات الحزن في قلبي يعانقن الظهيره
إمبارح جينا حارتكو
يا دار ما بينتوا

يا علّةٍ في الصدر
ما يداويها إلا انتو[5]

ففي هذا المقطع يحيلنا إلى الموروث الغنائي في أداءٍ يهدفُ إلى استيعاب النص الفولكلوري وتوظيفه في سياقٍ يشبه توظيف الغيطاني للنص التراثي في الزيني بركات، توظيفا يرْمي إلى التعبير عن نفسه من جهة، والسعي إلى تجاوز هذا التراث من جهة أخرى [6] . وقد يمزج القيسي في هذا النوع من التناصّ بين عدد من الاقتباسات، بعضها من التراث الشعبي، وبعضها من الشعر العربيّ الفصيح، وبعضها من الأمثال الدارجة في الخطاب اليومي، ومن ذلك هذا المقطع من إحدى قصائده:

يا مال الشام أضاعوني
طال مطال البَيْن وما أحدٌ قال ْ
وشال الحِمْلَ ولا تركوني
ناديتُ محبّي، هم خدعوني [7]

فهو اقتباسٌ يقوم على الدمج، وعلى إلصاق نصوص منها: قول الشاعر العَرْجي " أضاعوني وأي فتىً أضاعوا " وما ورد في القرآن الكريم من تحريم لأكل أموال اليتامى، وما ورد في خطبة منسوبة لطارق بن زياد قيل فيها " أضْيَعُ من الأيتام على مأدبة اللئام" وهو مثل عربي، وأغنية شعبية معروفة في وادي الفرات بسورية، ولكنها أضحت معروفة في بلاد الشام كافة بعد أن شقت طريقها إلى الأغاني الإذاعية والتلفزيونية، وصدحت بها حنجرة المطرب الشعبي المعروف صباح فخري:

يا مال الشام يا الله يا مالي

طال المطال يا حلوة تعالي[8]

وقد يلجأ الشاعر، بدلا من اللجوء إلى الدمج، والإلصاق، إلى التحوير، بإدخال زيادة في النص الأصلي. أو حذف بعض الكلمات ليصير المعنى فيه جديدًا. وهذا النوع من التحوير يُمكن إدراجه واحتسابه في الانزياح الأسلوبي، لأنه في نهاية المطاف ضرْبٌ من التوسُّع الدلالي يلجأ إليه الشاعر ليجعل النص السابق دالا على معنىً جديد ينسجم مع تجربته هو. ومصداق ذلك هذا المقطع من قصيدة محمد الثاني يُزفُّ إلى سارا (المتقارب):

هي الآن في أسْرها
جارة للنخيل تهزّ، فيسّاقط الليل في حِجْرها
بلحًا ناضجًا، وأمان
هي الساحُ والوثْبة المقبلة
وما قالتِ الريحُ للسُنْبلة .[9]

فالمقطع يذكرنا بالآية (25) من سورة مريم، لكنّ الشاعر سمح لنفسه هنا أن يضيف الأسْر مما أخرج القول عن سياقه السابق، وجعل الليل هو الذي يتساقط بدلا من الرُطَب الجَنِيّ، وأضاف إلى تساقط الليل البلح الناضج، والأمان، وهو بذلك يضيفُ إلى النصِّ الغائب دلالة جديدة يجعل منها مناط الغاية في خطابه الشعري، وفقا لرؤاه التي تحدِّدُها طبيعة المأساة – مأساة فلسطين.

ولا يفوتنا أن نشير إلى شمول التحوير للبنية التركيبية للجملة، فقد استبدل الفعل المضارع تهزّ بالأمر (هُزّي) وفي ذلك ما فيه من تغيير في المعنى، طبقًا للقول المأثور " إن أي تغيير في الدال لا بدّ أن يتبعه تغيير في المدلول " [10]

وهذا اللون من التناصّ أقل وضوحًا من اللون السابق. على أن التناصّ في شِعْـــر القيسي ذو مستويات متعددة، أولها ما يمكن أن نسميه التناصُّ الأسْطوريّ. وهو أكثر الأنواع اتصالا بثقافته الدينية، والمثولوجية، فعلاوة على اقتباسه من التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، يقتبسُ من الأساطير الإغريقية، والفينيقية، والمصرية القديمة، ومن خرافات بابل، وآشور، وملحمة جلجامش، ومن آثار الكنعانيّين في فلسطين. فعندما نقرأ المقطع الآتي من إحدى قصائده:

ليأتِ اليافع الأخضر دانييل
ليأتِ إليّ مثلَ ثوْرٍ كلداني ّ
وأنا بحُليّ هداياهُ أتزيَّن [11]

نتذكر أسطورة (أقاهات) الكنعانية، زوجة دانييل، وهو ابن أحد ملوك الكنعانيين، وكان قد نذره والده قربانا للآلهة منذ طفولته. وفي الحكاية يلاقي دانييل حتفه في قتال غير متكافئ، وتبتهل أقاهات إلى الإله طالبة بصيغة الدعاء أنْ يُبادر إلى مساعدة سليله " . وقد استخدم بهذا الأسلوب أسطورة أخرى هي أسطورة " ممنون وأورورا " والأول بطل مصري قاتل ضد الأثينيّين في طروادة. وبعد مقتله أقيم له تمثال في مدينته بمصر، فكان كلما نزل عليه الندى صباحًا، وطلعت الشمس، يُصدر أنغامًا. وتقول الأسطورة إن الندى هو دموع (أورورا) أمّه التي كانت تذرفها خوفًا عليه، وإشفاقا على مصيره [12]. وقد جعل القيسي أورورا هي التي تموت، وممنون هو الذي يبكي. ولا شـكّ في أنه،بهذا التحوير، الذي أجراه في الأسطورة، قد رمز إلى محنته بوفاة أمّه (حَمْدة) فرأى في كل شيء كيانا يتفجّع، وسنابلَ تنْحَني، وظلامًا يُخيّمُ على الأرض (الرجز):

فلتنحنِ السنابل

وليتنبّه هذا الفضاء
وليتسع قليلا لحزني
لهذه البئر العميقة
بعد نوم أورورا الأخير
وانبلاج هلال اليُتْم [13]

وقد اقتبَس من الأساطير الإغريقية الإشارة إلى حرب طروادة ، فوصف يافا بأنها طروادة القلب، الغارقة في حصار خانق.[14] وقد جمع في مقطع واحد من قصيدة واحدة بين أسطورة جلجامش الواردة في التراث السومَريّ، وقصة يوسف - عليه السلام- في القرآن الكريم، فمزج مزجًا واضحًا بين الأسطوري والديني:

السهوبُ التي تُعْوزُني حسرة يوسف
وجنون جلجامش
لأحيط بها
وأعْزف نشيدي [15]

وفي شعر القيسي نجد إشاراتٍ إلى نماذجَ، ورموزٍ، أدبية قديمة، ومعاصرة، وهو بإشارة لأحد هذه الرموزلا يختلف – قطعا- عن إشارته لإيزيس، مثلا، أو ممنون، فقد أشار إلى عنترة العبسي، الذي احتل حيزًا غير صغير في شِعْره، يقول عن نفسه:

وحيدا ظللتُ أجولْ،
وحيدًا كعنترة يغني، ويجوّد في
السهم ، وحيدًا ينتظرُ جوادًا، ويَدًا

ليفكّ غبارَ الصدْر ،
ويمسحَ ما علِقَ به منْ،
طين سلالتِهِ الغاربَة [16]

فهذا غير بعيدٍ من قول عنترة بن شداد العبسي(الكامل):

إن أنكرتْ فرسانُ عبْسٍ نِسبتي
فسنان رمْحي، والحسامُ، يقرُّ بي [17]

ومن الإشارات التي تعتمد التذكير بأحد الرموز الأدبية المشهورة ما نجده في قصيدة الوقوف في جرش، فقد استوحى فيها وقفة الشاعر الجاهلي الطللية من بداية القصيدة إلى آخرها، وعرّج على شعراء آخرين وقفوا على الطلول الدارسة، والآثار الطامِسَة، ومن أبرز هؤلاء بالطبع امرؤ القيس الذي ذكرنا به من خلال المقطع التالي(الرمل) :

كيفَ، وحدي، استفزّ الكائنات
وأقولُ: اليومَ أمْر ؟! [18]

فلا شك في أنَّ الناظم يحيلنا إلى قول الكندي الشاعر حينما بُلّغَ بمقتل والده على أيدي بني أسد: اليوم خمرٌ وغدا أمر. ولكنه عدل عن تسويف الشاعر القديم، وجعل الأمر مرتبطًا بيومه لا بغده. وفي ذلك ما فيه من نفي لموقف الآخر. وفي موضع ثانٍ يذكر النواسيّ [19] ويذكر من النماذج الأدبية الأندلسية كلا من ابن رشد، ومحيي الدين بن عربي :

والشيخ وحيدًا كان يمرّ
أعني محيي الدين بن عربي
لحظة رحيله من فاس

في الطريق إلى الشام
حيثُ ينام الآن .[20]

وقد استوحى في شعره كذلك شخصياتٍ، ورموزًا أدبية معاصرة، كالشابي، والسياب، ووالت وايتمان، ولوركا. ففي ديوانه الأول 1968 يحيلنا إلى قصيدة السياب " أنشودة لمطر" إحالة قد تخفى على القارئ إن لم يكن على دراية بهذه القصيدة، يقول مخاطبًا قريته كفر عانة في فلسطين(الوافر):

وكيف غزتكِ أسرابٌ من الغربان
أبادتْ كل ما جمّعْتِ من غلة

فهوبلا أدنى ريب يشير إلى قول السياب (الرجز):

وينثر الغلالَ فيه موْسِمُ الحصاد
لتشبع الغربانُ والجراد [21]

ولا يُستغرب من القيسي أن يشير إلى شعر السياب، إذ لطالما أعْربَ عن إعجابه به، وبشعره، وتأثره به تأثرًا قويًا، ولا سيَّما بقصائده: أنشودة المطر، وغريب على الخليج، وقصائده القصيرة عن جيكور وبويب. وكانت تجربته هي الدافع الأكبر لانغرازه في تربة الشعر الحديث [22]، وتوجُّهِهِ إلى شعر التفعيلة. وفي قصيدة للقيسي نجدُه يحيلنا إلى شاعر من تونس، وهو أبوالقاسم الشابي، بكلمة واحدة متداولة مشهورة لورودها في مطلع قصيدة، يقول القيسي:

سكنتُ قلوب الشجر
وأعراقَ الزَعْتر
قلتُ: يأتي من يكسرُ هذا القيد
يأتي من يشعلُ أعراس الأرض

ويحترم الإنسان [23]

وفي شعره قصائد تحيلُنا إلى شاعر إسبانيا الكبير لوركا، منها نقشُ لوركا الذي استوحى فيه شيئا من أدب الشاعر الإسباني، وكثرة ذكره للغَجَر، الذين يضيئون اللآلىء، أو يشيّعون سلاسَة الحرير. والآلات الموسيقية التي ذكرها لوركا في شعره مثل الغيتار، والناي، ذكرها القيسي في نتاجه الشعري، مثلما ذكر أسماء المُدن: غرناطة ، وقرطبة، وغيرهما (المتدارك):

وأحدّث غرناطة
من أي الأبواب إليك سأدخل
يا امرأتي الغائبة بلا زنبق
يا منفى قلبي
يا صدْري المغلق ،
من أين إذاً أتدفَّق ؟[24]

وقد ذكر في شعره والت وايتمان- الشاعر الأمريكي المنافح عن حقوق الإنسان ، الرافض لسياسات حكومة بلاده- وذكر ديوانه أوراق العشب:

آهٍ يا والت وايتمان
إني خَجِلٌ من محنتك الكونية
خجلٌ مما تفعله أمريكيا
ومما يفعله بك مواطنوكَ في الحواضر العربية
سائقو العربات والبحارة والنجارون والجنود
أولئك الذين قلت في أوراق العشب
أنهم أصحابُك . [25]

والتناصُّ في شعر القيسي شديدُ القرب من التراث الشعبي. فهو في بعض الأحيان يقتبس الأغنية في قصيدته مثلما هي من غير تعديل، ولا تحوير، مضفيا على شعره بساطة يستمدها من بساطة الغناء الشعبي، وفي الوقت نفسه ينْدغِمُ صوته الفردي الخاص بالصوت الجماعي الذي تمثله الأغنية، فينشأ بسبب ذلك نسيج جديد متلاحم من الموروث والحداثة، فيمثلان معًا لوحة شعرية جميلة في الصورة والتركيب. وقد برزت هذه الظاهرة في شعره منذ الديوان الأول " راية في الريح" في قصيدة (الصمت والأسى) خاصة:

ويأتي صوت والدتي العجوز ...
مبللا بالحزن والأملِ
بالله يا طير إن جيت دارنا
ريّضْ ألا يا طيرنا وارتاحْ
وقل لها بحال الجهل يا طول عزنا
ويا ما قعدنا ع الفراش صحاحْ
يا من درى يصفى زماني وأعاتبو
وأعاتبو ع اللي مضى لي وراحْ [26]

وتكرَّرَ نظيرُ هذا الاقتباس في قصائد كثيرة منها قصيدته العاشق والأرض [2] في أداءٍ يعتمد على مزج اللغتين معًا؛ لغة الشاعر، ولغة الأغنية، فيما يشبه التهجين بتعبير شُجاع العاني(27). على أن لدى القيسي نوعًا من التناص لا يستخدم فيه الموروث الغنائي، ولكنه يحاكيه في بناء الجُمْلة، والإيقاع الموسيقي، ومن ذلك الجزء التالي من قصيدة له يُذكِّرُنا فيها باغنية دارجةٍ متداوَلة (الرمل):

يا حماماً في العلالي يصيح

لا تقلْ لي:
الفراقُ صحيح.
يا حمامًا في العلالي بكى
أنّ، واشتاقَ، وغنّى، وبكى.
يا حمامًا أعطني الآنَ جناحْ
ظعَنَ المَحبوبُ يا عيني وَراحْ[28]

وهذا التناصّ – في حقيقة الأمر – يجمع بين حكاية شعبية عن الأميرة التي تحوَّلت إلى حمامة بيضاء – والأغنية المتداولة، مما يجمعُ، أيضا، بين زمانٍ مضى وانقضى، وآخر حالي، وآنيّ، ّ وهو زمن الشاعر الذي يعيش تجربته، ويعبِّر عنها بهذا التناص: أي يعبر عن ذاته برموز صاغها الآخرون. ومن الآخرين الذين صاغوها الوعيُ الشعبيُّ الذي استقرّت لديه الحكاية وأنْتَجَ هذه الأغنية، مثلما أنتج ما فيها من اللحن الموسيقي الذي قلده القيسي، وحاكاه:

أنا الطير الأخضر
يمشي ويتمخْتر
مرْةْ أبويَ ذبحتني
وأبوي أكل لحمي
وأختي لملمت عظامي
ولما طلع القمر
صرت طير أخضر
كلُّ مساحات فلسطينَ عظامٌ مطمورة
حين يجيءُ الليل ويطلعُ قمر الناس [29]

وقد مثل الموروث الديني مَصْدرًا غنيًا ثرًا من المصادر التي نهل منها القيسي بعض شعره، واستوحى تعابيره، وصوره. فقد اقتبس من القرآن الكريم، ومن الكتب الدينية الأخرى، ورسائل الصوفية، وأشعارهم،واستمد خيالاته من الظواهر الدينية المعروفة كالشعائر والطقوس، والهجرة، والاستسقاء، وصلب المسيح – عليه السلام- ففي قصيدة له من ديوان إناء لأزهار سارا يقول (المتقارب) :

وينفخ في الصور ،
يطلع عشبٌ من البحر
هذا هو الأبيضُ الساحليّ ،
المدى والكتاب .[30]

وفي قصيدة أخرى نجده يقتبس آياتٍ من القرآن حرفيًا مؤكدًا تداخل لغته هو بلغة الكتاب (السريع):

وزلزلت الأرض زلزالها
يسأل البحر أنْ مالها
المدى واسعٌ
والردى جامعٌ [31]

وقد استوحى من القرآن قصيدة عنوانها يوسف في الجبّ، فتحولت القصة في شعره إلى حكايةٍ ذات دلالات رمزية وثيقة الصلة بالواقع المعيش، فجسدت، من خلال المعاناة الفردية، باعتبارها - أي قصة يوسف عليه السلام - نصًا موازيًا لحال الإنسان الفلسطيني الذي تخلى عنه إخوتُه العرب، بل مارسوا القمْع ضدَّه بصورة عملية، وأتمروا عليه للتخلص منه، ونفي وجودهِ (متدارك):

صلبوني في الغربةِ يا حادي الركْب
قيدني إخواني ورموني في الجبّ
قتلوني بجواب الصمت
قتلوني يا حادي الركب
لأني أحببْت .[32]

وهذه القصيدة أسبق بكثير من قصيدة محمود درويش (أنا يوسف يا أبي) التي تضمنها ديوانه لماذا تركت الحصان وحيدا؟ (1996) مع أن كثيرًا من الدارسين، ومنهم حسين حمزة، وقفوا عند قصيدة درويش وقوفا طويلا، بينما لم تنلْ قصيدة محمد القيسي منهم سوى التعتيم، والظلال. فكأنّ الدارسين، والنقدة، لا يتناولون في شعرهم إلا النجوم، أو المقرّبين من الرؤساء، والسلاطين. وكان سميح القاسم هو الآخر قد استوعب قصة يوسف- عليه السلام- في واحدة من قصائده، فلم تنل هي الأخرى إلا ما نالته قصيدة القيسي من الأضواء[33]. وأحال إلى هذه الحكاية أيضا معين بسيسو في قصيدة له موسومة بالعنوان " نفرتيتي " [34] ومريد البرغوثي أحال هو الآخر إلى القصة نفسها في قصيدته " أكله الذئب" [35]. ومن قصص الأنبياء التقط شاعرنا حكاية مريم- عليها السلام- وولادة المسيح .ومما يميز التناصّ الديني لديه استدعاءُ النصوص في صورها المختلفة أحيانًا، وفي أحايين أخرى يعتمد التناصّ عنده على محاكاة الخطاب القرآني باستخدام فواتح السُوَر، نحْو قوله (متدارك)

واو . طاء . نون
حجرٌ مسنون [36]

وصفوة القول أن التناصّ في شعر القيسي ذو مُسْتوياتٍ عدة، فإلى جانب التناص الأسطوري، والديني، والأدبي، نجد نوعًا يعتمد على التراث الشعبي الذائع؛ من مواويل، وعتابا، وميجنا، ومن أغانٍ، وقصص، وأمثال نادرة، وحكمٍ سائرة. وقد وجدنا في شعره أمثلة من ذلك كله، وَظَّفها لأكثر من غرض. أولها أنه وضع بذلك شعره في السياق المعرفي، والثقافي، الذي يُضفي على رموزه دلالاتٍ، وصورًا من المعاني يصعُبُ الوصول إليها عن غير هذا الطريق. وثانيها أنه عبَّر عن أفكاره، وإحساساتِهِ، ومشاعره، بلغةٍ صاغها الآخرون، وفي ذلك ما فيه من دلائل التفاعُل بين المبدع، بصفته منتجًا للنص، والقارئ بوصفه مستقبلا له في اللفظ، متفاعلا به في المعنى . وثالث هذه الأغراض التي يحقّقها عن طريق التناص أن قصيدته اتخذت من حيث النسيج اللفظي، واللغوي، طابعًا مغايراً للطابع المعروف في القصيدة التقليدية التي تقومُ على الصوْت الواحد. ففي شعر القيسي، مع عمق أساه، وقوة شجْوه، توحَّد العامّ، الذي هو صوت الآخرين، بالخاص الذي هو صوتُ الشاعر، وهذا حسبه.

الإحالات

1. محمد جاسم،التناص المفهوم والآفاق،الآداب، بيروتنع97،تموز،1990ص65
2. جوليا كرستيفا،علم النص، ترجمة فؤاد زاهي، طوبقال للنسر، الدار البيضاء، 1991،ص79
3. خليل الموسى،التناص والأجناسية في الشعر، الموقف الأدبي، دمشق، ع205، س1996ص 81
4. انظر على سبيل المثال:البريكي، فاطمة، التناص في النقد القديم، ر.ج، غير منشورة، ج الأردنية، 2003، وفيها ثبت بمراجع عدة اتخذت التناص موضوعا للبحث.
5. القيسي، الأعمال الشعرية، 1/ 93
6. الشيخ، خليل:النص التراثي في رسالتين، أبحاث اليرموك، مج8، ع1، 19990، 108

7. القيسي، السابق، 1/ 194
8. العياشي، عبد القادر ،الغناء الشعبي في وادي الفرات، دمشق، 1983، ص102
9. الأعمال الشعرية،1/ 280
10. المسدي، عبد السلام، الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، تونس،1977ص54
11. الأعمال الشعرية، 486/3
12. السابق، 106/2
13. السابق، 116/2
14. السابق، 244/1
15. السابق، 184/3
16. السابق،الأعمال الشعرية، 496/1
17. ابن شداد، عنترة، ديوان عنترة بن شداد، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ص111
18. السابق،239/1
19. السابق،574/1
20. السابق45/1
21. السياب، ديوانه، ط1، بيروت،1971،ص371
22. عبد العزيز، يوسف، حوار مع القيسي، مجلة عمان ع96، ص7
23. القيسي، الأعمال الشعرية، 188/1
24. القيسي، الأعمال الشعرية، 396/1 وانظر الفصل الخامس من هذا الكتاب ص 91 وما بعدها.
25. السابق، 414/3
26. الأعمال الشعرية، 411/3
27. السابق، 82/1
28. العاني، شجاع، دراسة في بلاغة التناص الأدبي، ص90
29. الأعمال الشعرية، 140/2
30. السابق 207/1
31. الأعمال الشعرية، 275/1
32. السابق، 311/1
33. الأعمال الشعرية، 51/1

34. القاسم، سميح، الأعمال الشعرية، دار العودة، بيروت، ط1، 1992
35. بسيسو، الأعمال الشعرية، بيروت، ط2، دار العودة، ص671
36. البرغوثي، مريد: الأعمال الشعرية، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ص213
37. القيسي، الأعمال الشعرية، 488/1

ونافذةٍ منْ خَشَبْ
لأمّ محمد
تطلّ على شارع لم يُعبّدْ
وحاكورةٍ للخضار مُسوّرةٍ بالبَلَحْ
تطلّ على الأفْق، والناسِ،
من تَحْتها يذهبُ البائعون إلى سوق يافا
ومن تحْتها تمرّ الصَبايا إلى العَيْنِ
ومنها تطلُّ وتندَهُ أمّ مُحمّد
على أخَواتي
ومنها يصيحُ أبي يا مُحمّد،
تعالَ فقد صادَني الإنجليزُ أخيرًا
تعالَ فإنّي سَأذْهَبْ

الفصل الرابع
المكانُ في شعره

كثيرًا ما يتناول الدارسون، وجَهابِذةُ الأدب، المكان في الشعر، أو في القصة، أو في الرواية، وأيا ما كان الأمرفينبغي للدارس الحصيف أنْ يميز بين دلالة المكان، وحضوره، في الشعر، وتلك الدلالة التي نجدها في النثر، لا سيما في السرد القصصي، والروائي. ففي الشعر قد يذكر الشاعر مكانًا، يوحي به، ويومئُ، لشيء لا علاقة له بالمكان المذكور؛ ففي قول محمود درويش على سبيل المثال (البسيط):

في كلِّ مئذنةٍ
حاوٍ ومُغْتصِبُ
يدعو لأندلُسٍ
إنْ حوصِرتْ حلبُ

يدركُ القارئ- أيًا كان حظه من البصر في الشعر- - بلا تردّد، أو تحفُّظ - أنّ حلبَ ها هنا، والأندلس، لم تذكرا لتؤديا وظيفة كتلك التي يؤديها ذكر عطفة الصيرفي في رواية نجيب محفوظ " اللص والكلاب"، أو ذكر قلعة حلب في رواية " أرض السياد " لعبد السلام العُجيلي، أو ذكر البيازين في رواية " غرناطة" لرضوى عاشور، أو أي مكان آخر يجري ذكرهُ في هذه الرواية، أو تلك، ووَصْفه، ورصد ما يطرأ عليه من تغيير، كالذي عرفناه مثلا في رواية جمال ناجي" عندما تشيخ الذئاب ". فقد تجلى التغيير في بعض الأحياء مؤكـدًا أن هـذا التغيير تجـلى

أيضًا في سلوك الأشخاص، ومستواهم الاجتماعي، والطبقي، والأخلاقي، وحتى السياسي. وقد يكون المكان في الرواية علامة دالة على نمط الشخصية، مثلما نلاحظ - على سبيل المثال - ما في بيت الشيخ الجنزير في رواية جمال ناجي المَذكورة. وربما كان محمد القيسي الشاعر، لا الروائي، من أكثر الشعراء تعبيرًا عن الذات باستخدام الأثر الإيحائي الذي يتركه المكان في لغة القصيدة, فما من مكان زارهُ، أو أقام فيه إقامةً، ولو قصيرة، إلا وكان له أثره في شعره. فقد عرف أمكنة كثيرة بدءًا بالقرى الفلسطينية الصغيرة التي مر بها، وعبرها، مع أسرته عند الرحيل الأول، وانتهاءً بالمخيم في الجلزون، وبالمنافي.فالمكان، والشاعر، لدى القيسي صنوان، يُذكي كلٌّ منهما ذاكرة الآخر، والمكان عنده ليس مساحة، ولا معالم جغرافية، ترتبط بتاريخ معين، ولكنه أيضا أناسٌ، وامتزاج، أو انفتاح، بين الذات والكون، فعلى سبيل المثال، لا الحصر، كتب قصائد عن غرناطة يرى فيها المخيم، مثلما يرى أمَّه الراحلة، ولوركا الشاعر الغَجَري الإسباني، وبهذا يتضح تداخلُ الزمن والمكان، ولعل هذا ما عناهُ عندما كتبَ ذاتَ مرة (المتدارك):

في المكان الذي ليْسَ لي
لا أرى ضوءَ منزلي

فإنْ لم تكن للأمكنة علاقة به،هو، شخصيًا، وبذكرياته، وطفولته، وبوطنه الذي طالما نظَم الشعر في الحنين إليه، والتوقِ للرجوع إلى منزله السليب في كفر عانة، فإنه لا يمثل قيمة شعرية في نتاجه الإبداعي، ولا يسعى لذكره، أو التذكير به. وقد ارتبط شعرُ القيسي بادئ الأمر بالمنزل، أو البيت، أو الدار، وهذه الكلمات الثلاث مترادفة المعنى في قصائده. فهو لا يذكر الدار إلا وفي ذهنه ذِكْر البيت، ولا يذكر المنزل إلا وفي ذهنه الدار والبيت. ولما كانت ولادة الشاعر قبل النكبة

بأربع سنوات 1944 ولما كان ارتبط شعرُ القيسي بادئ الأمر بالمنزل، أو البيت، أو الدار، وهذه الكلمات الثلاث مترادفة المعنى في قصائده. فهو لا يذكر الدار إلا وفي ذهنه ذِكْر البيت، ولا يذكر المنزل إلا وفي ذهنه الدار والبيت. ولما كانت ولادة الشاعر قبل النكبة بأربع سنوات 1944 ولما كان استشهاد والده قد جرى في العام 1948 وهو ابن أربع، فإنّ من الطبيعي لابن الرابعة ألا ينسى ذلك المشهدَ وقد عاد والده جريحًا، والدم ينزفُ منه بغزارةٍ في " الحوش " وأمه حمدة لا تستطيع إسعافه، أو إنقاذه من الموت الحتمي، وهذا هو ما عناهُ في إحدى قصائده المبكرة، إذ يقول (الرجز):

ربطتُ حوْل إصبعي الخيطانْ
وقلت: لا.. لن يقْدرَ النسْيانْ
أنْ يسرق الهمومَ منْ قصائدي، والذاكِرةْ،
لأنّني ،مذْ كنْتُ، لا أجيدُ حرْفَة النسْيانْ[1]

البيت

ومن أبرز العناصر المكانية، التي تمتلئ بها ذاكرة الشاعر: البيت، بكل ما فيه من أجزاء يرتبط بعضها ببعض، ويساند بعضُها بعْضَها الآخر في استعادة الكثير من الذكريات، والأحداث، والأشياء المادية المحسوسة، والمعنوية، التي تعيد للشاعر سنيَّ الطفولة أولا، وتعمق لديه الإحساس بهويته الوطنية، وهويته الاجتماعية، بوصفه فلسطينيًا ثانيًا، وفلاحًا من إحدى القرى، وهي قرية كفر عانة المذكورة ثالثًا، وقد انطبعت حياته- مثلما هي ذكرياته في الوطن- بالطابع القروي، والريفي. ففي القرية، مثلما يعرفُ الكثير ممَّن لهم علاقة بالعادات الفلسطينية، والثقافة الشعبية، تحتل عين الماء، والطريق إليها، موقعا مهمًا في حياة الناس، لا

سيما الشبان الذين يرقبون الصبايا ذاهباتٍ، أو آياتٍ منها، وعلى رؤوسهنَّ جِرارُ الماء، فهي فرصتهم الوحيدة لممارسة طقوس الغزل، إذا سمحت الظروف بذلك، ولهذا لا يفوتُ الشاعرَ، وهو يتحدث عن البيت في كفر عانة، أن يشير لقربه من طريق العين، مثلما هو قريب أيضًا من كروم العنب، وكروم الزيتون (الرجز):

أنا طريقُ العَيْن
والحصى البعيدُ والبَيادِرْ
حاكورةُ النخيلِ
بابُ دارنا الخَشَبْ [2]

وذِكْر الباب- ها هنا - مع التأكيد على أنه بابٌ من الخشب،يستدعي- بلا ريب - نمطًا من أنماط الصناعات التقليدية، والنجارة، التي كانت تعتمد على هذا النوع من الانتاج المبسَّط، فثمة شبابيك وأبواب لا تخلو من زخارف محفورة في الخشب. وإلى هذا يومئ الشاعر بذكره أن الباب من الخشب. علاوة على أن الباب يمثل في حياة القرويين خط الدفاع الأول عن الأسرة، فهم يتفنَّنون في اختراع الأقفال، ووسائل الحماية الداخلية، كالمزلاج الخشبي، أو المعدني. فبعد أن تنتهي السهرة يقوم صاحبُ البيت بإحكام إغلاق الأبواب، فهو، أي الباب، يعطي كلّ منْ في المنزل شعورًا بالأمان، ولهذا يشيرُ القيسي مرارًا للباب، ولصريره، ولظلاله، ولدوره في إخفاء ما يدور خلفه من أحاديث، ومن أسرار(المتدارك):

ولجَ أبي
والضيفُ على مبْعَدةٍ في الظلِّ
يقظًا كانَ، وكانَ الليل
يسترسلُ في مَلَكوتٍ لا يَخدُشُهُ شيء

غيرُ صرير الباب
جمّعَ بعْضَ القهْوَة والخُبْز
وظلّ صريرُ الباب
يقرع خلفَ أبي، ظلَّ البابْ
مفتوحًا لرجالٍ يأتونَ سريعًا
وأنا أكبُرُ حتّى غابْ
ظِلُّ أبي والبابْ (3)

النافذة

فالمقطعُ السابق يشير إشارةً غير مباشرة لفضاء البيت، وانفتاحه على العالم من خلال الاستقبال المتكرر الموصول لمناضلين يقرعون الباب ليلا، ثم يُستقبلون بالخبز والقهوة، وغير ذلك مما يقدم من قِرىً للضيوف، مع أن الأبيات تؤكد أنهم ليسوا ضيوفًا، وإنما كانوا يقصدون صاحب البيت للتحدّث في أمور الوطن، والمقاومة، والقتال، ولهذا نجد الإشارة المتكررة لصرير الباب، ولبقائه مفتوحًا على الرغم من الليل المسترسل في صمته العميق، من الإشارات التي تومئ، بطريقة غير مباشرة، لاستشهاد الأب لاحقاً، وهو ما عبَّرت عنه عبارة "غاب ظلّ أبي ، والباب " فمن غير حاجة إلى التأويل تقول لنا الأولى: إن الأب قد اسْتُشْهد، وإن الطفل الذي يتحدث إلينا قد فارق البيت، فغاب البابُ عن نظره منذ ذلك الحين. فالحديث عن البيت، والباب، تحوَّل إلى حديث عن المقاومة، وعن الأب، وعن الوطن الذي يرزح تحت نير المحتلين. والبابُ يذكرنا بالنافذة. ذلك لأن النافذة هي الأخرى تؤدي وظيفتين في البيت، أولى الوظيفتين أنها قناة تواصل مفتوحة على الأفق الخارجي، ومن جهة ثانية لها وظيفة تشبه وظيفة الباب، فهي من عناصر

الحماية لما يتخذ لها من شبابيك، أو شبكة من القضبان الحديدية، زيادة على أن للنوافذ في معظم البيوت مظهرًا جماليًا، وصحيًا، لما تسمح به من تدفق لأضواء النهار إلى الداخل، ومن ضرورة بنائية لتهوية الداخل المنزلي، والترويح عن النفس في أيام القيظ والحرّ. وقد خصص القيسي مقاطع ليشيرَ فيها للنافذة إشاراتٍ غير عابرة، فهو في " قصيدة الدار " يؤكد ما للنافذة من أثر يتجلى في ذاكرة الشاعر، وطفولته المأزومة بفقدان الأب (المتقارب):

ونافذةٍ منْ خَشَبْ
لأمّ محمد
تطلّ على شارع لم يُعبّدْ
وحاكورةٍ للخضار مُسوّرةٍ بالبَلَحْ
تطلّ على الأفْق، والناسُ
من تحتها يذهبُ البائعون إلى سوق يافا
تمرّ الصبايا إلى العَيْنِ منْ تحْتها
ومنها تطلُّ وتندَهُ أمّ مُحمّد
على أخواتي
ومنها يصيحُ أبي يا مُحمّد
تعالَ فقد صادَني الإنجليزُ أخيرًا
تعالَ فإنّي سَأذْهَبْ (4)

فالنافذة هي التي تسمح برؤية الشارع الذي لم يكن قد عُبّد بالإسفلت حتى ذلك الحين، فهو شارع ترابيّ، وتسمح النافذة أيضًا برؤية الحاكورة المحيطة بالبيت حيثُ الخضارُ، والنخيلُ، الذي يمثل سورًا يحمي تلك الحاكورة، وهي التي تسمح

بمراقبة الذاهبين إلى يافا، والآيبين منها بعد رحلة تسوّق، ومنها يستطيع الصبيّ المراهق أن يرى الصبايا الذاهبات إلى العين، أو العائدات، وهي التي تسْمح للأم بالنظر عبرها، ومناداة من تشاء من الأبناء، ومنها يذكر الشاعر كيف دعاه أبوه بعد عودته جريحًا للقدوم، ومساعدته في مِحْـــــــنتهِ الأخيرة، بعد أن تمكن منه الإنجليز أخيرًا، أي بعد أن بذلوا ما بذلوه للقبْض عليه، وها هم قد أفلحوا أخيرًا، وهو على وشك أن يغادر الحياة، وهذا ما تعبّر عنه الكلمة الأخيرة " تعالَ فإني سأذهب ". على أنّ الولد الذي كانَهُ الشاعر يواصل عبثه، ولهوه، ويركض باتجاه البيت ليلحقَ بأبيه قبل أنْ يُتوفى، ومنذ ذلك الحين والشاعر يحسّ بأن ذلك الطفل ما زال يركضُ، وما زال يأمل بالوصول لتلك النافذة:

ومنْ دارِ أمّ سَنَدْ
ركضتُ، وما زالَ يرْكُضُ فيّ الولدْ
ولمْ أصلْ النافذة [5]

الطاقة

وهذه إشارة- بلا ريب – تعبِّرُ، أو توحي بحضور تلك اللحظة في وعْي المتكلم، وكأنه يعيشها في حاضره، وأنه ما يزال يركض ليلحقَ بأبيه الذي اصطاده رصاص الإنجليز قبل أن يفارق الحياة. وثمة فارقٌ غير بسيط بين ما يسمى(طاقة)باللهجة الفلسطينية، وبين النافذة. فالطاقة تقعُ في العادة في أعلى الحائط، وتحت السقف، وهي صغيرة الحجم جدًا إذا قيست بالنافذة، ولا يُتخذ لها شبَكٌ من حديد، أو أي شيء مما يُعد من وسائل الحماية. فحجمُها الصغير، وعلوها عن الأرض، يمنع الفضوليين من النظر في البيت عبرها، أو من التسلق، واقتحام المنزل، فهي أقلّ من أن تسمح بدخول طفل صغير حديث الولادة. وفيها

يتخذ بعض الطيور،عادة، ومن أشهـــرها عصافير الدوريّ، مكانا لوضع الأعشاش، والبيْض، وربما اتخذها الحمامُ الأليف لمثل هذا. ومن يعرف الحياة في القرى يألف هذه الصورة التي وردتْ في إحدى قصائد القيسي، فهو يذكُر الطاقة الوحيدة في الدار، التي كانت بعيدةً على طرف من كروم البلد، بعيدةً عن البئر، وقريبة من المدرسة كثيرًا. وهو يذكر تلك الطاقة جيدًا على الرغم من السنوات الطويلة التي تفصله عنها؛ فأصابع يديه ما تزال تذكر بحنوّ ملمس تلك الجدران، وما يزال يذكر وقوفه الطويل ليرى بعينيه كيف تبني العصافيرُ أعشاشها، وكيف تضعُ البيض، وكيف تحتضنه إلى أن يكون أفْراخًا تطير(المتقارب) :

وأعرفُ طاقة دارٍ بعيدَة
تقوم وحيدَة
على طرفٍ منْ كُروم البَلَدْ
بعيدًا عنِ البيرِ
أقربُ من دار عمّي إلى المدرسَة
وأعرفها جيدًا
من حنين الأصابعِ
أعرفها منْ وقوفي طويلا
أشاهدُ كيفَ تزوّدُ بالقشِّ
كيف تحطّ وكيفَ تطيرُ الحساسينُ عنْها
وتتركني غاضبًا
أتوَعَّدُها بالصُراخ
وماذا سأفعلُ حينَ أصيرُ طويلا[6]

فالطاقة، التي يشير إليها المتكلم - ها هنا - كالنافذة التي أطلّ منها الأب الجريحُ، داعيا ابنه للحاق به قبل أن يفارق الحياة، وفي الإشارة للطاقة يبلغ بنا المتكلم الحاضرَ منتقلا إليه من الماضي البعيد، فقد أصبح الطفل القصير طويلا، ولكن الطاقة لم تعدْ موجودة، أي: أنها سُلبت، هيَ والدارُ، والحائط، والحساسين، والأعشاش، وما فيها من الأفراخ، أو البيْض. ولم يعد الصبي الألعبان يلهو بمطاردة العصافير، ولم تعد لديه تلك الرغبة الشديدة في أن يبلغ الطاقة تلك ليدُسَّ يديه متلمسًا زغب الطيور الفتية، ولم يعد ثمة ما يُعزّي به النفسَ سوى أن يهتفَ من منْفاه القسْريّ: ألا ليت الزمان يعود إلى الوراء، ولو قليلا.. ليقضي لبانات فؤاده المعذَّب (المتقارب):

وصرتُ طويلا
ولكنها لم تعُدْ
لمْ تعُدْ طاقة الأمْس لي طاقةً
لم أعدْ أتلهّى وراءَ العصافير
وظلتْ معي طاقة من زمانِ الطفولةِ
تهتفُ بي أنْ أعودَ طويلا
وأهتفُ منْ دار منفاي أهتفُ
ليْتَ
الزمانَ
يعودُ قليلا[7]

الشُرْفة

ومن يذكر الطاقة، والنافذة، والباب، وهي تمثل رموزًا للانفتاح على الأفق، وعلى الفضاء المطلق، لا بُد أن يضيف إليها شيئًا آخر، لا يقلُّ أهمية عنها، وهو الشُرفة. تلك التي تمثل في الواقع مزيجًا من العالم الداخلي للبيت، والمحيط الذي يكتنفه من الخارج. وهي كغيرها مما ذُكر قناة تصلُ من في البيت بالعالم. وقد كثُر رمز الشرفة، وتوافر في الشعر الحديث وفرة لافتة، ففي بعض الدواوين نجد قصائد بعنوان شرفة، ومنها ديوان محمد إبراهيم لافي الموسوم بعنوان " **لم يعد درج العمر أخضر** " [8] وثمة من كتَب رواية بعنوان " شرفة رجل الثلج "[9] والإشارات التي من هذا النوع كثيرة جدًا. على أننا ينبغي ألا نذهب بعيدًا، فالشاعر نفسه كتب رواية اختار لها عنوانا غير بعيد عن هذا، وهي روايته " **شرفة في قفص**" الصادرة عن دار الآداب في بيروت2004.وفي قصيدة من قصائد القيسي نجده يتنازل عن الأشياء كلها مقابل الاحتفاظ بشرفة البيت، فالأشياءُ الأخرى يمكن اختيار بدائل لها، إلا الشرفة؛ فهي صلة الموصول، وهمزة الوصل بين الشاعر وعالمه المفتوح على احتمالاتٍ كثيرة (المتدارك):

هل نتقاسَمُ هذا الميراث
خذ أنت الزوجة، وخذِ البيت، خُذِ الأولاد
ودعْ الشرفة لي
خذ مِفتاحَ البيت،
وخذْ غُرَف النوم،
ودعني فوق السور
أتأمل هذي الزهرة

خذ أقواسَ الزينة، والألوانْ
وخذ ماءَ البُستان
وخذ ضوءَ الميناءْ
ودعْ لي القاربَ
ولنفترقْ الآنْ [10]

ومنْ يتأملْ المقاطع المذكورة يلاحظْ أنّ الشاعر استبدل القارب بالشرفة، وهذه إشارة ينبغي ألا نمرّ بها مرّ الكرام، ولا بد أن نقف لديها، ونتساءل: لم استبدل الشاعر القارب بالشرفة؟ الجواب عن هذا السؤال يتطلّبُ التذكير بالقارب الذي يحل محلّ الشرفة، فهو وسيلة سفر، وتنقُّل في البحر، وإلى هذا تومئ الشرفة التي هي وسيلة تنقل بين داخل المنزل والعالم الخارجي: السور مثلا، والزهرة، وأقواس الزينة، وماء البستان. فمن يمتلك الشرفة كمن يمتلك القارب، يستطيع أن يكون حيث يشاء، في حين أنّ بقية أجزاء البيت لا تضْمَنُ ما تضمنه الشرفة من انفتاح على الفضاء الكوني.

الحيطان

وهل في صورة النافذة، والباب، والطاقة، والشرفة،ما يكفي لتواصل البيت مع الفضاء الخارجي، أم أن الحيطان تسطيع أن تكون هي الأخرى همزة وَصْل بين الداخلي المحدود وما هو فضائي مطلق؟ من المتّبع في الأدب أن يُنظر للحيطان بوصفها الحاجز الذي يفصل الداخل عن الخارجي، ويحمي ما في الداخل، ويعطي البناء شكله الهندسي، والوظيفي، وقد يضيفُ الشاعر، والكاتب، للحائط من الداخل إشاراتٍ لزخارف، ولوحاتٍ، وما شابه ذلك، وقد يذكر الطلاء القديم الباهت، أوالجديد اللامع، لكن القيسي في واحدة من قصائده يتخذ من الحيطان

علاماتٍ تميط اللثام عن ثقافة شعْبية، وعن عاداتٍ وتقاليد، وعن رغبات مكبوتة فردية وجماعية تستطيع الحيطان، على الرغم من أنها جُدُرٌ طينيّة صمّاء، أن تعبر عنها بكلمات صريحةٍ حينًا، وحادّة جارحة أحيانًا أخرى. فالأطفال يرسمون على الحيطان رسومًا معبرة: شجرًا تارة، وتارة أشكالا بلا معنى، ودوائر، ومربَّعات، وقد يكتبون كَلِماتٍ، وحروفًا بالطباشير، فتتحول الحيطان إلى صُحف، ومنشوراتٍ، هذا عدا عمّا في المقاطع الشعرية من إشاراتٍ لما يُعد عناصرَ راسخةً في الثقافة الشعبية والتراثِ الفلسطيني:

ومن طينٍ هي الحيطانُ
من تبْنٍ ومن قَصَلِ
ومن عَرَق النواطير
تظلّ الريحُ تضْربُها بلا شفقة
طوالَ اليوْم
من جهة الكروم تهُبّ غامِضةً
وتبكي كالنواعيرِ
ونركضُ حولها في الصيْف
نزيّنُها بألوان الطباشير
ونرسمُ فوقها شجرًا
واشكالا بلا مَعْنى
خُطوطًا لا تقرّ، مُربَّعاتٍ ، أوْ دوائر للعصافير
وقبْلَ النوم
نبلّلُها، ونسرع في الدخول لأنّ صَبْري

ذكّر الأولاد بالواوي
فدبَّ الخوْفْ [11]

يلَمْلِمُ الشاعر، في هذه الصورة، عددًا من العناصر التي تحمل في دلالاتها علامات الارتباط بالقرية، والريف، والأرض، كالطين، والتبن، والقَصَل- وهو ما يتبقى من سيقان القمح، أو الشعير، بعد درسه في البيدر، وهو أقلُّ نعومة من التبْن- وعرق الفلاحين الذين يعملون في البساتين، ومزارع القثاء، ويكدحون ثم يئنون. ويذكر الكروم والريح التي تهب، والأطفال الذين يلهون في مرح عند الحيطان، ويكتبون عليها، ويرسمون.. وهذه لوحة رائعة نابضة بالحياة، تشهد على صدق الشاعر في التعبير عن الذات عبر الموضوع، وهو المكان. فهو إلى جانب استدعائه لذاكرة الطفولة، وذاكرة المكان، يعبر عن حنينه الشخصي، وتوقه الذاتي للتفاعل بتلك الأمكنة، والفضاءات التي تحيط بالبيوت التي أجبر هو وأسرته الصغيرة على تركها بعد مصرع الأب، أو استشهاده على أيدي الإنجليز. وتكراره؛الجدار، والحائط، والسور، كتكرار النافذة، والباب، والكوَّة، والشرفة، لا بد أن يوحي لنا بذلك التلاحم بين المنزل والفضاء الكوني، بما يعنيه هذا التلاحم من معنىً. فها هو ذا يذكرنا بأنّ بيت أمه (حمدة) محاط بسور من الطين، متشح بالفضاء الخالي إلا من الأرْض، ومن آنية قديمة من التوتياء، وبضع سلال من الخوص عُلِّقت على الحائط – السور- الخارجي. وفوق السور، على مسافة قصيرة تظهر للعيان بقايا سقفٍ قرْميديّ كأنه من الندى، ومن مزيج التواشيح الليلية التي تعدد فيها الأم ما مرَّ بها من كوارث، وأحزان، وفي الخيال يتشكَّل البيتُ على هيئة سراج يُذكّرُهُ بما مضى من العمر الشاحب، واللهو الصبياني، والبرْدِ القارس (المتقارب):

بسورٍ منَ الطين
كانَ على طرف الأرض
متشحًا بالخَلاء
إناءٌ من التوتياء
وخمْسُ سلالٍ
على الحائط الخارجيّ
معلَّقة في الفراغ
أثاثٌ قليلٌ
ولكنه بيتُ حَمْدَة
قرميدهُ من ندىً،
وتواشيح ليل طويل
على حالهِ
مثلَ أوَّل صحْوي
عليْهِ ولهْوي
يرفُّ سِراجًا مدلّى
يرفُّ على الأفْق برْدانَ مثلي[12]

في البيتيْن الأخيرين يتضح أنَّ القيسي في استذكارة للبيْت الأليف يتوحَّد به، ويمحو الظلال التي تخفي العلاقة بين الذات والموضوع. فيصبحُ البيت، والقيسي الشاعر، شيئا واحدًا لا اثنين. وفي صورٍ حميمة جدًا يرسم الشاعر لفضاء البيت لوحاتٍ تنطوي على كل ما هو رائع ومُعبّر عن أسى الشاعر لمفارقة المكان المعنيّ بالصورة. فمن الباب يخرج المتكلم ليصطدم ببرك من المياه تجمَّعت بسبب المطر،

وأما الميازيب فقد أرسلَتْ هي الأخرى مقادير كبيرة من مياه المطر إلى داخل الحوش. إلى ذلك ثمة نبع يتدفق، وثمة ندىً يظل لامعًا على الزهور، وعلى الأوراق، وعلى أوراق نبتة البطاطا ذات الخضرة المنتشرة في حقل خاصّ بها أمام البيت، فالماءُ في هذا المشهد يرمز للحياة، ولهذا سرعان ما يرتبط بالجنس،والزواج، والغسيل، الذي يشير - بالطبع - لأشياء عدة، وأحد الأشياء التي يرمز إليها اغتسالُ القلب، وهو - على أي حال - في لمحة دالَّةٍ على ما جرى، يفقد ذلك كله، وتتحول خضرة الأشياء إلى صفرةٍ منذرةٍ بمَوْت:

هل ظلّ لي ماءٌ ودارْ
هل ظلَّ مزرابٌ على سَطْحٍ
وهل غيمي هنا غيمي
وهلْ ظلتْ طريقُ العيْن
ظلتْ نفسَها عندي طريقُ العيْن
هل تحكي الجرارْ
عن طينها المَنْثورِ أيْنَ غدا
وعن حقل البطاطا كيْفَ صارْ[13]

مفرداتٌ كالطريق، والعين، والسطوح، وبرك الماء التي أمام الباب، تنأى بالمتلقي عن الداخل، وتضعُه، وجها لوجهٍ، أمام علاقة البيت بالعالم، ولهذا كان المنزلُ في شعر القيسي علامة لا توحي بالوحدة، أو الانغلاق عن الآخرين، ولا بالوحشة، والحزن، حسب، بل توحي أيضا بمدى التفاعل بين هذا الإنسان، الذي هو- غالبًا - قناعُ الشاعر، والكوْن، ممثلا بما فيه من عناصر إنسانية، وعناصر طبيعيّة، وعناصر زمانيّة تحيل إلى الذكريات، وإلى أيام العُمْر، مُرّةً كانتْ أم حلوة.

ويجلو القيسي هذا كله في " مشهد منزلي " يبدأ بالإشارة إلى أوراق الخريف، وينتهي بابتداء خريف العمر، فالانطلاق في رسم معالم الصورة يبدأ بالمحسوس وينتهي بالمجرد، وهو بَدْءُ الشيخوخة التي جاءته قبل الأوان (الكامل):

ورقُ الخريف على الممَرِّ
على النوافذِ
أسفلِ السور الذي مالتْ به الأوصافُ،
والصَفْصافُ
يلهو في فضاء الدارِ
مأخوذًا بثوْب الريح
يَحْفظ ما قرأ
ورقُ الخريف على المَخدّة، والسريرِ
على رنين القلب، والغيتار، حطَّ
على الزنابق، والكلامْ
على نُحاسِ اليومِ،
والليمونُ
غطى منزْلي، والياسمينْ،
ورقُ الخريفِ
هنا بدأ (14)

وإشارة الشاعر التي تجمَعُ ما هو داخل البيت، وما هو في النوافذ، أو السور، توطئة للحديث عن تراكم أوراق الخريف على المخدّة، وعلى السرير، وعلى القلْب، وعلى آلة الموسيقى الوحيدة، وهي هنا الغيتار، وعلى التحف الموجودة في البيْت،

وعلى الكلام، وعلى كلّ شيءٍ من أشجار الصفصاف إلى الليمون والياسمين، أي أنّ الصورة تمتلئ بعلاماتٍ جلُّها تشير إلى الخريف الذي جرت العادة على التعبير به عن الشيخوخة، مع أنه لا يمثل في الواقع سوى شيخوخة نسبيَّة في عمْر الزمان. فدورة الفصول تحتم أن يأتي الربيع أولا، يليه الصيفُ، ثم الخريف الذي تعقبه الأمطار، وهذه الدورة استلّ منها الشعراءُ فصلا، وعبّروا به عن شيخوخة العمر، كما لو أنه رمزٌ متداولٌ معروف، ودرج الناس على هذا. فامتلاءُ " المشهد المنزلي " - وهو عنـــوانُ القصيدة - بأوراق الخريف، يوحي لنا بهذه المشاعر تجاهَ الزمن، وهي مشاعرُ جرى التعبير عنها بوساطة الأضواء التي سُلّطتْ على المكان.

وبالعودة إلى " المشهد المنزلي " يلاحظ الدارس تفاعل الداخلي بالخارجي على مستوى الفضاء النصيّ، والمكانيّ. فالإشارات تحيلُ إلى ما في البيت تارة، وتارة إلى ما في الفضاء كالأشْجار، والريح، والأسْوار. ومن الملحوظ أنّ فضاء البيت، في شعر القيسي، كثيرًا ما يلتفتُ فيه للداخل، مؤثثا بذلك رؤاه الشعرية، وقصائده المرتكزة على هذا البعد المكانيّ، بوصْفه بعدًا رمزيًا لا هنْدسيًا، ولا تخييليًا غرضه مساعدة القارئ على تخيّل الحوادث، مثلما هي الحال في القصّة، أو الرواية، فكيفَ تجلى الفضاءُ الداخلي لموتيف motif البيت في شعره؟

الفضاءُ الداخليّ

يكثرُ الشاعر محمد القيسي من الإشارة إلى الذات في شعره، وإلى الأم، وإلى الأخ والأخت زكية، وإلى الأصدقاء، والأحباب الذين تعلق بهم، أو تعلقوا به، ويكثر - أيضًا - من الإشارة إلى بيته باعتباره الإطار الذي يحتضن هذه العلاقات الحميمة مع الآخرين. فالبيتُ، لا يبدو على هيئةٍ مثالية إلا بوجود هؤلاء، أو- على الأقلّ- بوجود ذكراهم، وإلى هذا المعنى يشير في واحدة من قصائدهِ، مخاطبًا امرأة

أشاع حبُّها في فؤاده الكثير من الحنان، والشعور بالرضا الذي يريحُ النفس، ويحملها على الإحساس بأنَّ البيت الذي يلتقيها فيه- وهو بيته - أرحبُ مما هو، وأكثر اتساعًا (متدارك):

لكنَّكِ في غمْضةِ عيْن
خلّيْتِ بساتيني خضْراءَ،
ومنزلَ عائلتي
أرْحَبْ (15)

فالحبُّ الذي يجمع العاشق بالمرأة، والأب، بأفراد الأسرة، وما يتركه ذلك من إحساسٍ بالألفة، والعِشْرة، يُضفي على البيت معنىً مختلفًا عن المعنى المعتاد من حيث هو مكان تأوي إليه الشخوصُ، وتقيم فيه، فهو، إذًا، عشُّ السعادة، ومخدع الأحلام، والمكان الذي يتآلف فيه الجميع، ولذا يشير القيسي في قصيدة أخرى لهذا البيت بوصفه الموئل الذي تتجمع فيه هذه العواطف مع الأوراق الكثيرة، والقصائد التي تكتبُ عن معاناة الأسْرة في الحاضر، والماضي (الرجز):

لديَّ منزلٌ
ومقعدٌ وطاولة
ودفترٌ للعائلة،
لديَّ أوراقٌ كثيرةٌ بيضاءُ
تروي النازلَةْ (16)

البيت- الأم

وبما أن البيت، عند القيسي، لا ينفصلُ عمَّن يسكن فيه، ويقيم، وبما أن أول بيت نشأ فيه هو بيت أمه حمدة، فقد ظل تبعًا لذلك يتماهي فضاؤه بهذه الأم،

فحيثما ذُكِرتْ ذُكر البيت، وحيثما ذكر البيتُ لاحظنا حضورها فيه، سواء أكان حضـــورًا مبـاشرًا أمْ غير مباشر مـن

خلال الأشياء التي تُذكر. وبسبب ذلك لا يفوته، وهو يروى للمخاطب ما رآه في فلسطين " أرض كنعان "عند زيارته لها بعد غياب قسري دام " ثلاثين عامًا " أن يشير إلى منزله هو بوصفه منزل الأم " حمدة " وأنه بحث عن ذلك البيت في مخيم الجلزون مثلما بحث عنه في أماكنَ أخْرى، فلم يجد سوى طلل دارس، عفَتْ معالمه، وامّحتْ آثارُه، فبكى واقفًا مثل شاعر جاهليٍّ على الآثار، والدِمَن (المتقارب):

ذهبتُ إلى أرض كنعانَ بعد ثلاثينَ عامًا
من الهجراتِ لأبْحث عنْ بيْتِ أمّي
وعن جارةٍ شغَفتْني قديمًا،
فلا بيت أمّي وجدت، ولا جارتي في الحياةِ
وقفتُ على طلَلِ الأبْجديّة
ليس معي أحدٌ
كربلاءُ الجديدة قدّام عينيَّ
أنّى تلفتُ، أنتَ هنا، وهناكَ
مشينا معًا
وبكينا سويًا على أرْض جَفْنا
بكيْنا على الجلزون
وغزة قفرٌ أسيرُ[17]

فهو، تبعًا لذلك، بيتٌ يرتبط ارتباطا وثيقًا جدًا بالأم، وبذكريات الطفولة المعذبة البائسة، فعندما يتذكر الشاعر المنزل يتذكر معه حكاية الأمّ، ومعاناتها الشديدة لتعيل ما لديها من ابناء اعتمادًا على تعب اليدين، وعرق الجبين، لا على شيء آخر، فعندما تغادر للعمل، وتترك الأبناء في البيت، توصيهم ألا يفتحوا لأحدٍ أيا كان، وألا يعبثوا بالأثاث القليل، وألا يهملوا، أو يقصروا في القيام بما توصيهم به، فيتركوا النوافذ مفتوحة للغبار، أو المطر، أو عتْمة الليل، وهذه الوصايا تتكرَّر، وتترسَّخ في ذاكرة الصبيّ، يقولُ (الرجز):

توصينَني بالبيتْ
توصيني أنْ أعلفَ الدجاجْ
توصيني أنْ أغْلقَ النوافذ
إن أعتمَتْ
أوْ أمْطرَتْ
وترْجعينَ باكرة [18]

إذا تجاوز الباحثُ مسألة الوصايا، وتعمَّق في أرجاء المنزل من الداخل، ناظرًا فيما يحتويه من أشياءَ، لاحظ إلحاح الشاعر على ذكر الأدوات، والأوعية، والتذكارات العائلية التي ترتبط أيضا بالأم على نحو مباشر، أو غير مباشر. فهو يشير في واحدة من قصائده إلى لوازم الطعام، والسفرة، والطبخ، بوصفها علامات تنم على ثقافة شعبية تتشخَّص فيها ملامح الأم، والطبقة المسحوقة التي إليها تنتسب. يذكر (باطية) الخشَب- وهي القصعة المقعَّرة الكبيرة التي كانوا يسكبون فيها بعض الأطعمة الشعبية مثل المجدّرة، وغير ذلك- ويذكر المقلاة، والملاعق النحاسية التي شاع استعمالها قبل أن تنتشر ملاعق من معدن آخر(ستانلس)

ويذكر أطباق التوتياء، وهذا كله، أو بعضه، أصبح من الماضي، ولا وجود له اليوم إلا في متاحف المأثورات الشعْبيَّة، غير أن لوازم الطعام التي استعملتها حمْدة في الوطن، أو في المخيم، أو في المنفى القسري، لم تعد موجودة لا في البيت، ولا في متاحف المأثورات، ممّا يؤكد أنَّ ما حلَّ بها، وبهذا المنزل، أقسى من أنْ تحتمله النفسُ التي تتلهى ببريق الأمل بالعَوْدَة (نثر):

باطية الخشب
المقلاة
ملاعقُ نحاسيّة
صحونُ التوتياء
هو ذا حرْصُكِ كتذكاراتٍ عائلية
فيها روائحُ يافا
وما صارَ ماضيًا
وكلّ ذلك.. كلّ ذلك
لنْ يدخلَ مَتْحَفًا
ولنْ يصير إلى فرْجَةٍ
للسائح العربي والوطني
ولنْ يفرح بها جامع الآثار
لأنَّ كلّ شيءٍ سيظلُّ فينا
سنحمله يومًا
نحمله إلى تلك العَتَبَةِ
وإذْ ذاك، نفتقدك جدًا

ونقولُ:

لو كنتِ معنا

لو كنتِ

لو [19]

الإشارة هنا للعتبة تحمل في ثنياها دلالة جديدة، وهي الدارُ التي تركت في القرية(كفر عانة) فالفلاحون في القرى الفلسطينية اعتادوا أنْ يجعلوا مدخل الدار عتبة عالية قليلا، وتجد النساء فيها مجلسًا للنميمة، والمسامرة، وتبعًا لذلك يُفهم من هذه الإشارة حرصُ المتكلم، وهو هنا الشاعر بلا شك، على التذكير بأن العودة للوطن قابَ قوسين، وأنّ ما ضاع من لوازم، وأدوات ترمز للماضي، سوف تستعاد، وتُنقل إلى البيت القديم، والدار الكبيرة، ويومئذ يتذكر الأبناء الأم التي رحلت، ويثمنون بحرارة لو أنها معهم لتفرح فرحَهُم بالعودة، واسترجاع البيت، لتواصل حياتها في الموقع نفسه الذي استخدمت فيه المقلاة، وباطية الخشب، والصحون، وملاعق النحاس. قد تبدو هذه الإشارات لبعض الدارسين إشاراتٍ تلقائية، وطبيعية، لا مزيّة فيها، ولا بيان، بيد أنَّ من يتأمل ذلك بدقة يكتشف في تركيز الشاعر على هذه الأشياء التفاتاً لأدوات تنشأ بينها وبين الأشخاص علاقاتٌ حميمة، وألفة، ليس من اليسير أنْ تنسى، أو تمَّحي من الذاكرة. فالناس يعتـادون مـع الزمن استخدام أدوات معيّنة لا يتخلون عنها، ولا يستبدلونها إلا بشقّ النفس، وبإحساس مفعم بالحسرة. أما إذا كانت الظروف التي تحيط بالناس كتلك التي أحاطت بالشاعر، وأمه، بُعيْدَ النكبة، فإن صعوبة التخلي عن هاتيك الأدوات، التي لها علاقة بطعام الإنسان، وشرابه، وذوقه لها، ومزاجهِ، وارتياحه لما يستعمله من أدواتٍ، أكبرُ، وأشدّ على النفس، ولهذا نرى في هذه المأثورات

أكثر من دالّ على الثقافة الشعبيّة، فهي دالة أيضًا على محنة الشاعر، وما لقيه من قسوة عبّر عنها بهذه النظرة التي يُلقيها على ما في البيت من فَرْش، ومن متاع.

بيت الشِعْر

يتضح للمتتبّع حرصُ القيسي في شعره على تسليط الضوء على ما في البيت من قليل الأثاث، ومن الكتب، ومن أدوات الكتابة أيضًا، ومن أشياء تنمُّ على موقعه الإنساني بوصفه شاعرًا قضت الظروف أن يعيش خارج بلاده. فقد ذكرنا في أبيات له أن (الطاولة) عليها أوراق بيض، وأن فيها قصائد كتبت لتروي حكاية النوازل التي نزلت به، وبالأسرة. وقد تكررت مثل هذه الإشارة في صياغة يُراد منها الإيحاءُ بالفراغ الذي يعاني منه الشاعر، لأن ما يروم إنجازه من مشروعات كتابية يصطدم بمعوقات كثيرة فيضطر لإرجاء تلك المشروعات. وهذا شعور في الواقع مثبِّط، وكثير من الكتاب، والشعراء، يعانون منه معاناةً كُبْرى. فهو يتحدث عن شاعر فاجأه الشتاء البارد، وغافله، فلم يجد بدًّا من أن يجالس المدفأة. ويستطيع الدارس أن يتأمل فيما عسى أن تعنيه المدفأة في هذا السياق. فهي همزة وصل بين الأفراد في الأسرة؛ إذ كانوا يتحلقون حولها يسهرون، ويتحدثون، في مجلس يفيض بمشاعر الألفة، والحنان، والدفء. والدفءُ الذي تمنحهم إياه المدفأة نظيرُ الدفء في العلاقات التي تربط بينهم ربطًا يقوم على المودَّة. ومع هذا فالشاعر الذي يعاني من وضعٍ قلقٍ لا يجد في جلوسه مع المدفأة غير الإحباط، والفراغ، الذي يجعل من أحلامه رؤىً مطفأة (المتقارب):

قريبًا من المدفأة
قريبًا من اليوم والأمس
يُحصي فراغ يديْهِ

وقد فاجأه
شتاءٌ على غفلةٍ
ورؤىً مطفأة [20]

وهذا الإحْساس بالفراغ، والعجز، والغفلة، لا يحول بينه وبين محاولة الكتابة، فعلى أحد جانبيه أوراقٌ بيض تذكرنا بما ذكره عن النازلة، يميل نحوها ليخَطّط ما يحسبه القارئ بساتين، أي: مشاريع، وفي الجانب الآخر ثمة إبريق شاي، وكوبٌ واحدٌ، وكتابٌ كان قد حاول قراءته، ولكنه لم يوفق. ترى هل الكتاب ممل، أم أنه كتاب غير جيد؟ الإجابة عن ذلك يتضمنها السياق، فالامتناع عن قراءة الكتاب، وكون الكوب وحيدًا، وكون الأوراق بيضًا جرى القلم عليها ببعض الخطوط، يؤكد أن الشاعر في القصيدة يعاني الإحباط الذي يدعوه لتأجيل رؤاه (المتقارب):

قريبا من المدفأة
يخطّطُ فوقَ البياض
حدودَ بساتينه
ويرى فوْقَ طبْليَّةِ البيتِ
كوبًا وحيدًا
وإبريق شايْ
وثمَّ كتابٌ يحاولُ أنْ يقرأه [21]

خلاصة

صفوة القول وزبدة الحديث، إذا نحن أعدنا النظر فيما قيل عن فضاء البيت لدى القيسي، لاحظنا وجود عناصر متكررة؛ كالحائط، والسور، والنافذة، والباب، والآنية التي تستخدم في الطعام، وعلى المائدة، ووجود العناصر،

والأشياء التي تُنْسبُ إلى الأثاث القليل، والأوراق، والكتُب، والسِراج، ونباتات الزينة المختلفة، والفضاء المحيط بالبيْت كالحاكورة، والنخيل، والحقل، وتداخل الحديث عن الدار بالحديث عن الأمّ تارةً، وعن الأسرة، وعن الذات، وعن ذاكرة الطفولة المبكرة. وهذا كلُّه نجده يتكرر على نحو ما في الشعر الفلسطيني الحديث، ومثالُ ذلك ما وجدناه في قصائد لمريد البرغوثي، ومنها قصيدة " الدارُ العتيقة "[22] وقصيدة " دارُ رَعْد "[23] التي يستعيد فيها البرغوثـــي ما تُضمره ذاكرة الطفل، وما يملأ الخيالُ، من صور عن ماض بعيد تمثله حياة ذلك الطفل في أطواره في الدار، مشيرًا للعَتَبة مرارًا، وللخوابي التي كان الفلاحون يحفظون فيها المؤونة من الحبوب، والبقول، مكررًا ذكر الجدار، وما عليه من صُوَر تُعلِّقُ لمجاهدين استشهدوا في حرْب الإنقاذ، أو في ثورة 1936. وممن اتخذوا من البيت ركيزة تعبّر عن الذات، وعن الآخرين، محمود درويش، لا سيما في الديوان " لماذا تركتَ الحصانَ وحيدًا " الذي يُكرّر فيه الوقوفَ أمام البيت، واصفًا بدقة الملامح التي تمثل - بصورة من الصُوَر - تعبيرًا عن الثقافة الفلسطينية الشعبية في الحاضر، والماضي القريب، قبل أن يجتاح الأعداءُ القرى، والمدن، ويغيروا معالمها تغييرًا فيه الكثيرُ منَ التعَسُّف. ففي قصيدة بعنوان " إلى آخري وإلى آخره "[24] يجيب الطفل في القصيدة عن سؤال أبيه عن موقع البيت، وهل هو على يقين من أنه يستطيع العودة بمفرده دونما دليل، فيؤكد ذلك بذكْرِ الطريق، وتحديد معالم المَوْقع، فهو قريبٌ من الشارع العام، إلى الشرق من شجرة خرّوبٍ كبيرة، والدرب إليه ضيّقٌ، ويحيط به سياج من الصبَّار، ويطل من إحدى جهاته على كرم عِنَبٍ لعمّه جميل، وعلى حانوت لبيع التبغ، والحلويات. ويذكر البيت بدءًا بالباب الحديدي، والدرج الحجري المزدان بدعسات ضوء، وعلى كثَبٍ منه حاكورة زُرعتْ فيها

نباتاتُ عباد الشمس، ووضعت فيـها خـلايا للنحـل الذي يؤخذ منه عسلٌ مصفّى، يمثل- كما هي العادة- طبقا رئيسًا في فطور جَدَّه (المتقارب):

ياسمين يطوق بوّابة من حديد
ودعْساتُ ضوء على الدرج الحجريّ
وعبادُ شمسٍ يحدّقُ فيما وراءَ المكان
ونحل أليفٌ يُعدُّ الفُطور لجدّي
على طَبَقِ الخيْزُرانْ

وفي واحدة أخرى بعنوان " عندما يبتعِدُ " نجده يعمد لأسلوب معروف، وهو توجيهُ الرسائل للبيت، وفي تلك الرسائل لا يني يذكُر ما هو معروف عن البيت الفلسطيني في صورته المتكررة لدى الشعراء؛ القيسي، والبرغوثي، وغيرهما، فهو يذكر فنجاجين القهوة التي بقيت على حالها بعد النزوح، والفتاة التي كانت تحبُّ شابًا اضطر للهجرة، وما تزال عالقة القلب به تنتظرُ عوْدته، منبّهًا على بقية من رائحة القهوة على أطراف الفناجين في صورةٍ تعبِّرُ بقوّة عن تعلُّق الإنسان بالبيت (المتقارب):

وَسَلمْ على بيتنا يا غريب
فناجين قهوتنا لا تزال على حالها
هل تشمّ أصابعنا فوقها؟
هل تقول لبنتك ذات الجديلة، والحاجبين الكثيفين، إنَّ لها
صاحبًا غائبًا يتمنّى زيارتها
لا لشيءٍ ولكنْ ليدخل مرآتها، ويرى سرَّهُ
كيْفَ كانتْ تتابعُ منْ بعْدِهِ عمْرَهُ [25]

ومن القصائد اللافتة في شعر محمد إبراهيم لافي قصيدة " البيوت " وهي من الديوان الموسوم بالعنوان " ويقول الرصيف " وفيها يشير، لما اعتاده شعراء فلسطين من إشارات تعبر عن الهوية الفلسطينية المهَدَّدَة بالتذويب، والاقتلاع، والتشريد. ويضيفُ لما ذُكر السهَرَ على السطوح في ليالي الصيف، والقهوة، ورائحة الهيل، وشاي الأصيل، وهمس العذارى وراء الشبابيك، والأبوابِ، حالماتٍ بالزفاف، مكررًا ما سبقت الإشارة إليه في شعر القيسي من ارتباط البيوت بالعصافير التي تتخذ من شقوق الجدران، ومن الطواقي، أمكنة لأعْشاشها، والحمام الأليف يتوافدُ إليها سربًا يأتي وسربًا يروح (المتدارك):

والبيوتُ الأماسيُّ، رائحة الهيل، قهوتنا
شايُ جلْساتنا في الأصيل،
والبيوت السنونو، العصافيرُ تنشر أعشاشها في السطوح
والبيوت الحمامُ يطيِّرُ أعراسَهُ في الأصائلِ
سربًا يجيءُ وسرْبًا يروحْ [26]

ونستخلص من هذا كلهِ أنَّ الشاعر الفلسطينيّ، بصفةٍ عامة، والقيسي بصفة خاصَّة، يقارب المكان بمقاربته لفضاء البيت، وهي مقـــارَبَة مشفَّرة إذا جاز التعبير، لتوحي وتومئ بدلالات كثيرة عن ارتباط هؤلاء الشعراء بوطنهم السليب، وبهويتهم العربية الفلسطينية المهدّدة، وبفنهم الشعري الذي لا يهتمُّ بالتصريح عما يكنونه من مشاعر تجاه البلاد التي أخرجوا منها بالقوة، وإنما من خلال التعبير الفني الذي يبدو لنا وكانه حديث عن البيوت الأليفة بشهادة غاستون باشلار[27]، لكنه، في الحقيقة، والواقع، تعبيرٌ غير صريح، وغيرُ مباشر، عن المعنى، بما يمثله من أساسٍ يقوم عليه المبْنى؛ أو مثلما يقال: التلميحُ عوضًا عنْ التصريح.

الهوامش

1. القيسي، محمد، الأعمال الشعرية، ط1، 1987، ص 96
2. نفسه، ثلاثية حمدة، مصدر سابق، ص 55
3. نفسه، الأعمال الشعرية، ط1، 1999، 1/ 239
4. السابق، 2/ 234 – 235
5. السابق 2/ 232 – 233 وانظر كتابنا محمد لقيسي الشاعر والنص، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1998 ص 102
6. نفسه، الأعمال الشعرية 2/ 233
7. محمد إبراهيم لافي، لم يعد درج العمر أخضر، ط1، عمان: وزارة الثقافة، 2005، ص 91
8. نصرالله ، إبراهيم، شرفة رجل الثلج، ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم (ناشرون) 2009
9. القيسي، ذاهب لأرى وجهي، ط1، بيروت: دار الآداب، 1995، ص ص 28- 29
10. الأعمال الشعرية ، 1999 2/ 236- 237
11. السابق، ص ص ص 33- 34
12. السابق، ص ص 98- 99
13. السابق، ص 115- 116
14. السابق، ص 119- 120
15. القيسي، الموقد واللهب، مصدر سبق ذكره، ص26
16. القيسي، محمد، ناي على أيامنا، ط1، بيروت: دار الآداب، ص24 وانظر الرأي ع الجمعة 14 /2 / 1997 والجلزون مخيم على كثب من رام الله قضى فيه القيسي طفولته.
17. القيسي، كتاب حمدة، مصدر سبق ذكره، ص 81
18. السابق، ص 128- 129
19. القيسي، ذاهب لأرى وجهي، ص12
20. السابق، ص 131
21. البرغوثي، مريد، الناس في ليلهم، ط1، بيروت: دار الآداب، 1999 ص ص123 و 127
22. درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيدا، ط2، بيروت، الريس للنشر،1996 ص 40

23. نفسه، ص 42
24. نفسه، ص 164
25. نفسه، ص 167
26. لافي، محمد إبراهيم: ويقول الرصيف، ط1، عمان: ويقول الرصيف، وزارة الثقافة، 2010 ص28
27. باشلار، غاستون، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، ط1، بيروت:المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، 1996 ص 36 و ص ص 74- 75

الفصل الخامس
تأثير لوركا في شعْره
دِراسَة مقارِنَة

في دراسته "تأثير لوركا في الأدب العربي المعاصر"[1] يذكر الدكتور أحمد عبد العزيز أن محمد القيسي هو أحد الشعراء العرب الذين قدموا لبعض قصائدهم الشعرية بأبيات مترجمة من "لوركا" *Lorca* الشاعر الإسباني المعروف (1898-1936). والقصيدة التي يشير إليها الباحث هي قصيدة "الصمت والأسى" التي ظهرت في أحد أعداد مجلة الآداب البيروتية (1968) ثم أعيد نشرها في ديوانه الأول "راية في الريح" (1968) والأعمال الشعرية (1987)[2] والأبيات التي ذكرها القيسي في مستهل قصيدته هي آخر ثلاثة أبيات من "قصيدة الفارس" *Cancion de Jinete* التي يقول فيها لوركا [3]:

قبل أنْ أبلغ قرطبة
قرطبة
البعيدة الوحيدة.

وجاءت الأبيات في مقدمة " الصمت والأسى" غير دقيقة في رأي الباحث، وقد نقلت المعنى نقلاً غير حرفي، فجعلت من "لوركا" شاعرًا يستمهل الموت ريثما يصل إلى قرطبة، في حين أنّ النص الأصلي لا يوحي بذلك، بل يوحي بأن الموت يترصّد الشاعر، ويحول دون وصوله إلى " قرطبة النائية الوحيدة "[4].

وجاء في الترجمة العربية لهذه الأبيات ما يؤكد أن لا فرق، في الدلالة، بين ما ذهب إليه القيسي، وما ذهب إليه الدكتور أحمد عبد العزيز، على الرغم من أن هذا الأخير يعتمد النص الإسباني الأصلي، فيما اعتمد القيسي نصّاً مُترجماً عن الأصل الإنجليزي فيما أظن:

أوّاه، الموت يترصّدني
قبل أنْ أبلغ قرطبة
قرطبة
نائية، ووحيدة[5]

وهذه الترجمة التي أعدّها عدنان بغجاني في "مختارات لوركا" عن الأصل الإنجليزي ليست بعيدة عما ذكره محمود صبح في ترجمته للقصيدة في كتابه "مختارات من الشعر الإسباني المعاصر" :

أوّاه، فالمنيّة تترقّبني
قبل بلوغ قرطبة
قرطبة
نائية، ووحيدة[6]

وكانت الأبيات قد وردت في مقدمة القيسي للقصيدة على نحو استبدل فيه الشاعر كلمة (يُمْهلني) بكلمة "يترصّدني" أو "يترقبُني" وكلمة (أوّاه) بكلمة "آه".

آهٍ.. ليمهلني الموتُ
حتى أصيرَ في قرطبة
قرطبة
البعيدة، الوحيدة [7]

ولا ريب في أنَّ التعديل الطفيف الذي أضفاه القيسي على دلالات هذا الجزء من القصيدة إنما جاء ليتناسب مع محتوى قصيدته "الصمْتُ والأسى" وهذا ما تنبَّه إليه الدكتور أحمد عبد العزيز في دراسته بتأكيده أن الشبه " كبيرٌ بين قصيدة لوركا وقصيدة القيسي، على الرّغم من الخلط في الترجمة، لا سيما وأن القيسي في أول قصيدته يشير إلى النفي من خلال الطريق الطويل الصعب، الذي يرد في قصيدة لوركا" أيضاً(الوافر):

ولو أن الطّريق إليكِ ميْسورُ
لما وهَنَتْ خطايَ، وسُمّرتْ
نظراتيَ اللّهْفى، وراءَ البابْ [8]

فلوركا يَذكر في مستهل قصيدته الدّروب" ويذكر "السهوب" ويذكر "الدَرْبْ" ثانية، وأنه طويل طويل :أوّاه.. يا له من درْبٍ طويل طويل![9] يضاف إلى ما ذُكر أنَّ موضوع القصيدتين موضوعٌ واحدٌ هو الحنين، والعودة إلى الوطن مع استحالة تحقيق ذلك.[10]

ويكتفي الدكتور أحمد عبد العزيز بهذه الإشارة لأثر لوركا في شعر محمَّد القيسي. دون أن يتتبّع صوراً أخرى من هذا الأثر، أو "التأثير" نجدها كثيرة في شعره، بل ربّما كانت في شعره أكثر منها في شعر محمود درويش، أو سميح القاسم، أو البيّاتي، أو أي شاعر آخر. وقد يعترض القارئ قائلاً: إنّ القيسي لا يعرف اللغة الإسبانية، فكيف تتوقع أنْ يتأثّر بلوركا، وهو يجهل اللغة التي كَتَبَ بها هذا الأخير شعره؟

والواقع أنّ الأثر، والتأثير، لا يتطلّبان أن يطلّع المتأثر مباشرة، على نتاج الأديب صاحب الأثر، بلغته الأصلية، وقد عرفنا من دراسات الباحثين في الآداب المقارنة، والتقابُليّة، الكثير من النماذج التي برزتْ فيها التأثيراتُ دون أنْ يكون الجهل باللغة

الأصلية حاجزاً يمنع هذا الأثر، أو أنّ المعرفة بها همزة وصل تؤدي بالضرورة إلى انتقاله من مبدع لآخر[11].

الأثر والوسيط

وثمة وسيطٌ يشير إليه الباحثون يؤدي إلى المقاربة بين شاعر وشاعر، أو كاتبٍ وكاتب، وهذا الوسيط – في معظم الأحيان- هو الترجمة. ويزداد تأثير الترجمة في الأحوال التي يتمتع بها الأديب المترجَمَة أعماله بحضور قويّ في أدَب بلاده، وفي الأوْساط الأدبية الإنسانية خارجَ محيطهِ الإقليمي، واللغوي[12]. وهذه الشروط تتحقق في أدب "لوركا" فقد ذكر لويس باور الذي ترجم للوركا في مجموعة شعراء اليوم (1947) أنّ لوركا هو أكثرُ شعراء إسبانيا شُهرةً، وأنه تفوق في ذلك على شعراء جيله، من أمثال "أنطونيو ما تشادو *Machado* وخوان رامون خيمنيث *Jimenez* وداماسو ألونسو *Alonso* وروفائيل البيرتي *Alberti* وميغيل هرناندیث *Hernandez*[13]. ونبّه جان كامب في كتابه "الأدب الإسباني"، على إقبال المترجمين في أنحاء العالم على أعمال لوركا الشعرية، والمسرحية، فترجمت حتى سنة 1955 إلى عشرين لغة من اللغات الحيّة في أوروبا، وآسيا، وأفريقيا، وأميركا. وَعُرضت أعماله المسرحية على أكثر دور العرض المسرحي[14].

وساعدت جولاته في الولايات المتحدة، وكوبا، وأميركا اللاتينية، على ذيوع شهرته، وامتداد تأثيره الأدبي في رقعةٍ أوسعَ مدىً من أيّ شاعر إسباني آخر. ويعترف بهذه الحقيقة الشاعر التشيلي بابلو نيرودا، بقوله: "لقد اسْتُقْبل لوركا في أميركا، والمكسيك، والأرغواي، والأرجنتين، والبرازيل، وأميركا اللاتينية، باعتباره أكبر شاعر من أصل إسباني، وكانت زيارته لبيونس آيرس من أكثر تلك الزيارات إثارة"[15]. وثمّة أسبابٌ كثيرةٌ تجعل من حضور لوركا في الأدب العربي حضوراً قوياً.

فإلى جانب ما يتجلى في شعره من نزعة أندلسية تقوم على توظيف الإشارات، والرموز الأندلسية، العربية، والإسلامية، فضلاً عن محاكاة فنون الزجل، والغناء الأندلسي القديم الذي شاع في غرناطة إبّان العهد الإسلامي، وإيراد بعض الحكايات الرومانسية التي تعود -أصلاً- إلى التراث الأندلسي، نجد في أدبه، عمومًاً، وشعره خاصَّة، بعض التقاليد، والعادات، والقيم العربية الشرقية التي عَبَّر عنها في قصائده، ومسرحياته، كقيم الشرف، والعِرْض، والفروسية، وعزْل المرأة عن مجتمع الرجال، والإصرار على الأخذ بالثأر، وغسل العار بالدم. مثلما يتضح في مسرحيته "عرس الدم" *Blood Wedding* وازدراء المرأة "العاقر" [16] وهذا ما شجَّع بعض الباحثين على القول- في شيء من المبالغة التي ينبغي لنا التحفظ إزاءَها- بأنَّ "لوركا" ربما كان الدم العربي يجري في عروقه. [17]

فقد نفى في غير حوار أنْ يكون من أصل "عَجَريّ"، وقد استخدم لوركا، الذي كان محبّاً للشعْر العربيّ، والتراث العربي، الكلمات العربية في شعره، وكتبها بالحروف اللاتينية. ومنها كلمة *Casida* ، وكلمة جبلي *Jabali* ، وكلمة قُبّرة *Cabra* وكلمـة "الجبّ"[18] *Aljibe* وسّمى أحد كتبه "ديوان تماريت *Divan del Tamarit* فكلمة ديوان- ها هنا- مقتبسة من العربية، علاوة على ذلك، زاد من اهتمام الأدباء والمبدعين العرب بلوركا وشعره اعتقادهم بأنه ماتَ "شهيدًاً " وأن الذين أعدموه هم أتباع الجنرال فرانكو، وأنه كان "شيوعيّاً" ثائراً ضد الفاشـيّين، وأن مصرعه في أثناء الحرب الأهلية جاء في سياق التنكيل بالجمهوريّين[19]. وسواءٌ صحّت هذه المعلومات، أوْ لم تصحّ، فإنّ عدداً غير قليل من الكتّاب العرب رأوا في لوركا، وشعره، نموذجاً جذابًاً على الصعيدين السياسي، والإبداعي، فَطَفِقوا يترجمون شعره، ونثره، ويكتبون عنه الدراسات، والمقالات، وزادوا على ذلك بأن ذكروا اسْمه في

أشعارهم، بوصفه شهيداً يُقْتدى به، ويُحتذى. فقد شُغل بترجمة شعره كاظم جواد، الذي نقل بعض قصائده إلى العربية تحت عنوان "لوركا قيثارة غرناطة" 1957 [20]وترجم له فواز طرابلسي أربع قصائد في العدد التاسع من مجلة "المعرفة" السورية (1963)[21] وصلاح عبد الصبور ترجم مسرحية "يرما" *Yerma* ومجموعة قصائد صدرت في كتاب واحد (1967)[22] وترجم له محمود صبح خمس عشرة قصيدة في الكتاب الموسوم بـ "مختارات من الشعر الإسباني المعاصر" (1973)[23] وترجم عدنان بَغجاتي مختاراتٍ من شعره تضمُّ قصائد من دواوينه كلّها (1980) ابتداءً من "كتاب الأشعار" *Libro de Poemas* مروراً "بقصيدة الأغنية العميقة" والأغاني الغجرية" *Romancero Gitano* و "شاعر في نيويورك" وانتهاء بديوان تماريت [24] *Divan del Tamarit* وترجم أحمد حسّان عدداً من قصائده التي تمثل معظم تجاربه في كتاب نشره بعنوان "لوركا، مختارات جديدة" (1979)[25]. وصدرت ترجمة لأشعاره من إنجاز ناديا ظـافر شعبان بعنوان "مختارات من لوركا " (1981) وقد أعيدت طباعة هذه المجموعة مرّة أخرى (1983)[26] ونشر سعدي يوسف ترجمة لديوان "الأغاني الغجرية" (1981)[27] وجاءت ترجمته للقصائد ترجمة شعرية يلتزم فيها القافية والوزن. وترجم سعد صائب عن الفرنسية عدداً من قصائد لوركا ضمن "ديوان الشعر الإسباني المعاصر" (1985) واختار خليفة التلّيسي اللغة الإيطالية لينقل عنها أشعار لوركا كاملة في ثلاثة مجلدات نشرها تحت عنوان "الدّيوان الكامل" 1992 [25]. ونُشرت ترجمة كاملة لكتاب "شاعر في نيويورك" أعدها حسن مجيد (1995) *Poeta en Nueva York* وخصصت مجلة "الآداب الأجنبية" السورية جزءاً من عددها ذي الرقم (90) لشعره تضمَّنَ ترجمة مباشرة عن الإسبانية لقصائد مختارة قام بتعريبها رفعت عطفة (1997) وتخلَّلَتْ هذه المختارات بعض السونيتات،

والقصائد، التي لم تسبق ترجمتها للعربية. ثم ترجم له قصائد أخرى نُشرت مع القصائد المذكورة آنفاً في كتاب سماه "قصائدُ حبّ" 1998[29].

ونشرت المجلاّت الدورية، والصحف أكثر من اثنتي عشرة قصيدة من شعره مترجمة للعربية في مناسبات مختلفة، ومتباعدة؛ أما مسرحياته فقد نقلت جميعًاً إلى العربية غير مرة، وأولاها مسرحية "عرس الدم" التي عرّبها علي سعد (1954) ومهَّد لها بمقدمة مطولة تحدث فيها عن الشاعر وحياته، وشعره [30].

وترجمت للعربية أيضا مسرحياته "حديقة الحب"، و "غرام دون برلمبلين"، و"بيت برنادا ألبا"، و" يرما" *Yerma* و "السيدة روزيتا"، و "الإسكافية العجيبة"، وبعضها ترجم غير مرّة[31]. ونقلت إلى العربية بعض رسائله النثرية، ومحاضراته، وكتبت عنه دراساتٌ، ومقالاتٌ كثيرة، عرّفت القراء به، وبشعره، وبأعماله المسرحية، وبجوانب من تجربته ممّا جعل تأثيره في الأدب العربي عموماً، والشعر على الخصوص، أكثر وَقْعًاً من أيّ أديب إسباني آخر.

مظاهر الأثر اللوركوي:

ولا بد أن الشاعر محمد القيسي اطلع على هذه الترجمات، أو على أكثرها، وهو لا ينفي تأثرهُ بلوركا، بل يؤكد – في إحدى مقابلاته الصحفية- أنه تعرّف على شعر لوركا منذ عام 1964 وفتن بما يجده في شعره من إشارات إلى الموت، وهو يعدّه أحد آبائه الشعريين، ولا يقلُّ تأثيره في شعره عن تأثير الشعراء العرب الكبار، أمثال المتنبي من المتقدّمين، وأبي سلمى من المحدثين[32]. وقد ازداد إعجاباً بلوركا وتأثراً بشعره بعد فوزه بجائزة ابن خفاجة التي منحها له المعهد العربي الإسباني بمدريد (1984) على ديوانه "منازل في الأفق" الذي صدر باللغتين العربية والإسبانية في العام 1985[33]. ويذكر القيسي في ترجمته الشخصية أنه حين زار إسبانيا لتسلُّم

الجائزة قصد غرناطة، وزار القرية التي ولد فيها لوركا "فوينتيفا كيروس" وتجول في الأحياء، والأمكنة التي شهدت طفولة لوركا، وصباه، وفي "بستان التماريت" *Tamarit* الذي استوحى منه لوركا قصائد ديوانه الأخير (1936). وزار الجبل الذي ذُكر في شعر لوركا بوصفه مستقراً للغجر، وهو جبل "سكرومنتي". وتجوّل القيسي أيضاً في إشبيلية، وقرطبة، ومدريد، وتركت هذه الجولات – إضافة للقراءات السابقة- بصماتٍ واضحة على أشعاره[34].

ترديد اسم لوركا

ومن أبرز مظاهر هذا التأثر ذكر القيسي لاسم لوركا في غير قصيدة. فهو يذكره، ويتمنّى أن يمنحه بعض الإلهام، والوحْي، ليعبّر عمّا يحسّ به من حنين، وتوْق، إلى بلاده فلسطين، ثم يشير إلى اسْم أحد دواوينه، وهو ديوان "الأغاني الغَجَرية" ويذكر اسم إحدى الآلات الموسيقية التي تتكرّر في شعر "لوركا" وهي آلة "الكمان" (الرمَل):

آه يا لوركا
لهذا القصَبِ الناحلِ في الوِدْيان أمْشي.
وبحُزْن السِنْديانْ
فأعِزْني من دُجى غرناطةَ السّاجى
ومنْ ليل أغانيكَ الشجيّاتِ كمانْ[35].

فالمقطع الشعري السابق يضم إلى جانب اسم لوركا، وعنوان ديوانه "الأغاني" اسم مدينته غرناطة التي طالما تغنى بها الشاعر الإسباني، وذكرها في قصائده.

وفي قصيدة أخرى يذكر اسم الشاعر بأسلوبٍ قريب من الأسلوب الذي عرفناه في النموذج السابق، فهو يستغيث بلوركا، وبشعره، ليقوى على مجابهة الحزن الذي

يحسُّ به، والتعبير عن المشاعر القاسية التي تعصف في صدره، لذا يقرن ذكر الشاعر (لوركا) بعنوان إحدى مسرحياته، وهي مسرحية العرس الدموي وهو يذكر إلى جانب هذا، وذاك "النهر" وهو من المظاهر المتكرّرة في قصائد الشاعر الإسباني (الرمَل):

آه من نغمة أن يأتي
ولا يأتي إليّ النَهْرُ في هذا النهار
هل تخيط الآنَ تنّورتها حالمةً
بالنَهْر، والأقْراط، والعُمرْ الرضيّ
أعْطني شِعْرَكَ يا لوركا.
لهذا العُرْس، فالحزْنُ شجّي.[36]

تضمين الأبيات

وإذا تجاوزنا ذكر القيسي لاسم "لوركا" إلى شيءٍ آخر، وجدناه يضمّن بعض قصائده أبياتاً من الشعر قرأها مترجمة في بعض المختارات. فعلاوة على التقديم الذي أشار إليه الدكتور أحمد عبد العزيز في دراسته المذكورة، والذي نبّهْنا عليه في مستهلّ هذا الفصل، نجد القيسي يختتِمُ النشيد الحادي والأربعين من ديوانه النثري "مجنون عبْس" بأبيات من"قصيدة الفارس":

آهٍ. ليمهلني الموت
حتى أصير في قرطبة
قرطبة نائية
ووحيدة.[37]

ويلاحظ القارئ أن القيسي أعاد تضمين هذا الجزء من قصيدة "الفارس " دون أن يعيد النّظر في صياغة الأبيات، على الرغم مما قيل عن الخلط في الترجمة. وأغلب الظن أنّ الشاعر يرى في هذه الصياغة صياغة أدقَّ ملاءمةً لفحوى تجربته هو، إذ لو كان الأمر خلاف ذلك لما تردد في إعادة صياغة الترجمة، بحيث تقترب حرفيّاً من الترجمة الواردة لدى كل من محمود صبح، وأحمد عبد العزيز.

ترديد الأمكنة

وقد يتجلى أثر لوركا من خلال شيء آخر، وهو ذكر الأمكنة التي تتردّد، بكثرة، في شعره، ومن هذه الأمكنة "قرطبة" و"غرناطة" وبدرجة أقل "إشبيلية" فالقيسي يقول في إحدى قصائده (الرمَل):

سأغني الآنَ توقيعَ اعتذارْ
للسّطوح الواطئة
سأغني ودمي بابُ النهارْ
يا شموسي الدافئة
مَلَكوتي أنْتِ،
عزْفي الحارقُ اليوميُّ،
فُوَضْتُ عن الجوع،
فكاتبتُ القرى، والرّيف، والصّحراء، من نافذة القبر
وطوّفتُ رسولاً..
موفداً من ليل غرناطةَ.. طوّفْتُ..
وناديتُ، اخْرُجي غرناطة الآن إليّ. (38)

وفي موضع آخر يخاطب الشاعر (غرناطة) فيصفها بأنها "غرناطة" الحزن، وغرناطة الوحشة (الهزج):

مساءُ الخيرْ، يا غَرْناطة الحزن،
ويا غرناطة الوحشة، والرَعْشة
ما هذا الزحام؟.[39]

وفي قصيدة أخرى يساوي الشاعر بين (غرناطة) ومُدن أخرى مثل (يافا)، وغالباً ما يرتبط ذكر غرناطة في شعره بالحُزْن، وهو في هذا إنما يشبه "لوركا" من حيث أنَّ هذا الأخير ظل على الدوام يحنّ إلى مَسْقِط الرأس، وما فيه من ارتباطات، ويشبه القيسي حزنه بالكاتدرائية، التي يفرّ منها إلى "غرناطة" ذات الأبواب الكبيرة الكثيرة (المتدارك):

وأحدّث غرناطة
من أيّ الأبوابِ إليكِ سأدخُلُ
يا امرأتي الغانيةَ بلا زنْبَق
يا منفى قلبي
يا صَدْري المُغلْقْ
من أين إذاً أتدَفَّق؟[40]

وفي موْضع آخرَ نجد الشاعر يُحاور(غرناطة) فيذكر اسمها في القصيدة غير مرة، ويُفْضي إليها بأسرار نفسه، وخالص شعوره، فقلبه ممزق، وصدره براهُ الهمّ، والشجَنُ، وجسده ذابل يئنُّ، والغابة، والمرأة، وكل شيء، من حوله، يُجهش في البكاء، فلا يجد من يهمسُ إليه بأحزانه سوى المدينة الأندلسيَّة (غرناطة) [المتدارك]:

غرناطة
آه ياغرناطة
يانهراً يخفى عن عين الأعداء" عِياطَه"
القلبُ تجزأ، ياغرناطة
والصدرُ براه الهم، طويلاً ياغرناطة
الجسدُ هنا يذبل،
والشباك يئنُّ، وتشتَجِرُ الغابَة.
أغصاناً، ورياحاناً، وكآبة
وامرأتي تبكي
آهٍ.. يا " غرناطة"[41]

وفي قصيدة أخرى، يفصحُ بذكره (غرناطة) في السّياق التعبيري عن مرارة الاغتراب، أما (قرطبة) فإنّ ذكرها يأتي في إطار الإصْرار على العودة، والرغبة في الرجوع إلى الوطن، وتكاد الدلالات الصادرة عن ذكر الشاعر لهذه المدينة، في جلّ قصائده، تشبه الدلالات نفسها التي أومأ إليها لوركا في " قصيدة الفارس"، وغيرها(المتقارب):

إلى أين يا سيّدي القرطبي.
إلى أين موكبك العربي؟
وصلْنا إليك،
فهيّيء لنا من لَدُنْك الحروبْ.[42]

وفي "مجنون عبْس" يصرّ على الذهاب إلى قرطبة حتى لو حال الموت دون ذلك، ونجده يعيد إلى ذاكرتنا اسم "لوركا" ومقاطع من إحدى قصائده، وهي القصيدة التي يذكر فيها الفرَس، والزّيتون (المُتقارب):

سريعاً. وأقطف قبلتين
سريعاً وأمشي إلى قرطبة
الحِجارة في جيب سرْجي.
وأغاني (غارثيا) تترنَّح أمامي[43]

وفي هذه القصيدة- التي استبدل فيها الحجارة والسّرج بالزيتون والخُـــــرْج- يذكر القيسي الطريق المتعرّج، ويشير إلى النهر الذي يشق قرطبة نصفين، ويصف الجواد اليافع الذي يمتطيه، ووقع حوافره على البلاط في أزقّة المدينة الأندلسيَّة القديمة، وشوارعها الضيقة، وساحاتها الفساح، مشيراً إلى "الحوذيّ" بكلمة "الغيتاني": وهي كلمة إسبانيَّة بمعنى "الغجري":

أيّ امتنان أقدمه لك،
أيها "الغيتاني" الطيّب
في عربتك التي يجرّها جوادٌ يافع
ذو عُرْفٍ مثل شَعْر الأميرات.
وقوائمَ تلامِسُ برهافةٍ
أشبه بالقبَل
بلاط الأزقة القديمة
وهو يطوفُ (قرطبة) [44].

ومثلما يكرّر القيسي ذكر قرطبة عاصمة الخلافة الأموية، مشيراً إلى فسيفساء القصر، يذكر إشبيلية عاصمة المعتمد بن عباد، مؤكدا تأثره بلوركا من خلال التركيز على لفظة "الغجري" و"الرقص" وهما من الرموز المتكررة في قصائد الأخير:

وأنا أدخل إشبيلية
مترنّماً مثل "غجري" غريب
بلا موسيقى،
أو مساحة " للرقص ".[45]

وفي موضع آخر تقترن المدينة بشعور الغريب المهاجر
الذي يكاد يذهَلُ عن نفسه :

إشبيلية
لم أَكُنْ لأعدَّ نفسي
أنا مُهاجرٌ
ولا بريدَ لي[46]

ويذكر القيسي أمكنة أخرى تتكرَّر في قصائد "لوركا" منها (مدريد) وفي هذا المثال نجد الشاعر يذكرنا "بتفاحات لوركا البيضاء"، و"أغاني بيكاسو الصامتة". ولا شك في أنه قام بلعبة لتبديل الإشارات، فالأغاني للوركا، والتفّاحات لبيكاسو، ولا عَجَبَ في أن نجد مثل هذا "الخلْط" المتعمّد في الإشارات، لأن الشاعرَ، في نهاية القصيدة، سيأتي بعنترة –الفارس العبسي- إلى (مدريد) لتظلّله أولُ نخلة، مشيراً بذلك إلى نخلة الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل المعروف بصقر قريش (113- 172هـ):

تُرى تبحث عن ورْدةٍ لعروة النسيان
ليكونَ المساءُ لائقاً

واحتفالنا الصغيرُ جديراً بتأسيس بيْت
بنوافذَ وأبوابٍ عديدة
تصلُ مدريد بأبعد خيمة
وأوّل نخلة ظلّلت عنترة
ورتّل تحتَها نشيدَ الأسير[47]

والشيء نفسه نجده في قصيدة أخرى يذكر في أوّلها جبل "سكرومنتي"، الذي يُكرِّرُه في كل أجزاء القصيدة، مشيراً في الحاشية إلى أن هذا الجبل هو الجبل الذي اعتاد "لوركا" الذهاب إليه ليعاشر الغجَرَ فيه، متفاعلا مع ما لديهم من طقوس، وفنون، مُغنّيًا على ألحان الغيتار أغانيهم الشجيّة التي استوحى منها قصائد ديوانه "رومانسيرو جيتان".

سكرومنتي
سكرومنتي
أيتها النقطة العالية.
بانخفاضٍ قليلٍ عن "الحَمْراء"
ووادٍ من عظام غجرٍ رُقَّد،
وغيتاراتٍ مُحَطَّمَة.[48]

رموز لوركا وصورهُ

وإلى جانب ترديد الأماكن، التي ردّدها لوركا في شعره، مثل غرناطة، وقرطبة، واشبيلية، ومدريد، وسكرومنتي، نجد القيسي يستخدم ألفاظاً إسبانية مثل استخدامه كلمة (غيتاني) للدلالة على "الغجَريّ" في "أيها الغيتاني الطيب" التي يومئ

فيها إلى حوذي ساعده في مشاهدة أحياء البلدة، وفضلاً عن ذلك نجده يُكرِّرُ الإشارة إلى الغجر، وإلى النّهر، وإلى الجـــواد اليافع،

وإلى الغابة، والغيتار، والأغاني، إلى جانب الإفادة من منْهج لوركا القائم على محاكاة الأغاني الفولكلورية في شعره، وإخضاع القصيدة للنغَمَة الشجية التي ترافق الكثير من نماذج الغناء الشعبيّ. وهذه الظاهرة برزت في شعر محمد القيسي، ابتداءً من قصيدة "الصمت والأسى" وظلت تبرُز في قصائده، وما تزال تلوحُ في بعض نتاجه الجديد من حين إلى آخر[49].

خلاصة

ونخلص من هذا كله إلى تأكيد الحقائق الآتية:

1- إنّ القيسي قد تلقى أثر (لوركا) في شعره عن طريق الترجمات الكثيرة، والمتعدّدة لشعره، وأعماله الدرامية.

2- أسهمت زيارته لإسبانيا، وتردُّده إلى غرناطة، ومسقط رأس الشاعر، والأمكنة التي شهدت طفولته، وصباه، في تَعَمّقِ هذا التأثير، واستمراره.

3- وقد تجلّى أثر لوركا في شعره من خلال: ترديده اسمه (لوركا) ومناشدته أنْ يلهمه بعض شعره، وتضمين بعض الأبيات بعد إجراء التعديلات المناسبة في معناها لتلائم تجربته الذاتية، وترديد أسماء المدن، والأماكن، التي طالما ردَّدَها لوركا في شعره، واقتباس بعض الألفاظ الإسبانية، مثل كلمة "غيتان"[50]، واستخدام رموز تتكرّر في شعر لوركا مثل: الغجر، والغيتار، والنّهر، والحصان، والفارس. فضلاً عن التأثر بمنهجه القائم على تتبع الأغاني الفولكلورية، والإفادة منها في شعره [51].

الهوامش

1. عبد العزيز، أحمد: تأثير لوركا في الأدب العربي المعاصر، فصـــول، مج3،ع4،س1983، ص273
2. محمد القيسي، الأعمال الشعرية، ط 1، 1978، مصدر سابق، ص61
3. *(3)The Selected Poems of Federico* G. Lorca, edited by Francisco. G. And Donald. M. Allen, New Lorca.
4. عبد العزيز، أحمد، السابق، ص 273
5. عدنان بغجاتي، مختارات من شعر لوركا، دار المسيرة،ط2: بيروت،1938، ص 67
6. محمود صـبح: مختارات من الشـعر الإسـباني المعاصر، ط2، بغداد: دار الشـؤون الثقافية، 1986، ص82
7. محمد القيسي، المصدر السابق، ص 61
8. المصدر السابق،ص 63
9. محمد القيسي، المصدر السابق، ص82 وانظر *Selected Poems* ص41.
10. أحمد عبد العزيز، المصدر السابق، ص273.
11. فان تيغم، *الأدب المقارن*، ترجمة سامي الدروبي، دار الفكر، بلا تاريخ ص44.
12. المصدر السابق، ص112.
13. انظر مقدمة ترجمة علي سـعد لمسرـحية "*عرس الدم*" *Blood Wedding* دار المعجم العربي، بيروت، ط2، 1979، ص5.
14. كامب، جان، *الأدب الإسباني*، ترجمة بهيج شعبان، دار بيروت للطباعة والنشر، 1956، ص142.
15. . عرس الدم، ترجمة:علي سعد، ص34
16. السابق، ص9
17. انظر محمود صُبح، المصدر السابق ص89
18. وانظر عبد السلام المصباح، ***مختارات من ديوان تماريت***، مجلة "نزوى" ع15، تموز 1998 ص169.

19. انظر "***العرس الدموي***"، المسرح العالمي، الكويت، 1976. ص ص27-32.
20. كاظم جواد وسلافة حجاوي، لوركا قيثارة غرناطة، مطبعة المعارف، بغداد، 1957.
21. المعرفة، دمشق، السنة 2، العدد التاسع، تشرين 2، ص85.
22. صلاح عبد الصبور، فيدير كوغارثيا لوركا، بيرما وقصائد من شعره، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة،1967.
23. ظهرت الطبعة الأولى منه عام 1973 والمعتمدة هنا هي الثانية (1986) وانظر العدد 4 من "مختارات من الشعر الإسباني" المعهد الإسباني العربي، مدريد، 1979 ص154.
24. المصدر سبق ذكره.
25. ناديا ظافر شعبان، ***مختارات من لوركا***، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1981، وانظر الطبعة الثانية، 1983.
26. سعدي يوسف، ***الأغاني وما بعدها***، دار الفارابي، بيروت، 1981.
27. صدر عن الدار العربية للكتاب، (3 أجزاء) طرابلس، ليبيا 1992.
28. صدر في طرطوس بسوريا، 1998
29. علي سعد، لوركا- ***مسرحية عرس الدم***، مصدر سبق ذكره، ص ص9- 92، وانظر ترجمة ثانية لمحمود علي مكي.
30. أحمد سويد، ***الاسكافية العجيبة***، دار المعارف، بيروت، ط1، (1961) وانظر ط2، مكتبة المعارف، بيروت 1985.
31. طلباً للزيادة انظر **يومية مهرجان جرش**، عمان، العدد9، 25 تموز، 1991، ص7.
32. محمد القيسي، الأعمال الشعرية، ص553- 643.
33. إبراهيم خليل، محمد القيسي- **الشاعر والنص**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1998 ص20 وانظر أيضاً ص35- 36.
34. محمد القيسي، المصدر السابق، ص408- 409 وانظر *Selected Poems* ص173.
35. المصدر السابق، ص408.
36. محمد القيسي، **مجنون عبْس**، وزارة الثقافة، عمان، ط1، 1991، ص46 وانظر ما جاء في *selected Poems* ص41، حيث:

Ay! Hom long the road

Ay! My voliant pony

Ay! That death shoyld Waite me

Befor I reach Cordoba.

37. محمد القيسي، **الأعمال الشعرية**، ص403.
38. المصدر نفسه، ص399، وانظر قصيدة
39. السابق، ص 537 وانظر *Selected Poems p19*
40. السابق، ص537 وقارن بـ ص43 من المصدر السابق.
41. المصدر السابق، ص393- 394.
42. محمد القيسي، **مجنون عبْس**، ص155 وقارن بما ورد ص39 من كتاب *Selected Poems*. يقول لوركا:

43. Black pony, big moon

44. *And olives in my saddle- bag*
45. المصدر السابق، ص 159.
46. المصدر السابق، ص 166 وقارن بما ورد في *Selected Poems* ص17 و ص19
47. المصدر السابق، ص 115.
48. المصدر السابق، ص 166 وقارن بما ورد في *Selected Poems* ص17 و ص19
49. المصدر السابق، ص 149.
50. المصدر السابق، ص 151.
51. كتب هذا الفصل قبل وفاة الشاعر بأقلَّ من ثلاث سنوات ونشر في مجلة *علامات في النقد* جـ 40 مج 10 ربيع الآخر 1422هـ / يونيو – حزيران 2001 ص ص 377- 400. وانظر ص 45 وما بعدها من هذا الكتاب.

الفصل السادس
تراسل الأنواع في شعره

في إحدى المقابلات الصحفية التي أجريت مع الشاعر القيسي أشار إلى خروج نصوصه الشعرية، والنثرية، عن أساسيات النوع الأدبي وفقًا لما وصفت به في كتب النقد، ونظرية الأدب. فهو، خلافًا لما يتوقعه كثيرون، لم يكن هاجسه الجرْيَ وراءَ وَهْم التجريب. وإنما لأسبابٍ تتصل بوضعه النفسي، والاجتماعي، والثقافي، بصفته رافضًا لجلّ التقاليد، والقوالب الجامدة، الجاهزة، المعدَّة سلفًا، فقد جاءت أشعارُه، ونصوصه النثرية، لتَتَجاوبَ مع هذه الأوْضاع، والأحوال [1].

فمنذ ديوانه الأول[2] راية في الريح (1968) و [3] خماسية الموت في الحياة (1970) ورياح عز الدين [4] القسام (1974) خطا القيسي خطوات كبيرة، وقطع شوطا بعيدًا، خارج حدود الغنائية، ملتمسًا موضع قدم له في دائرة القصيدة السردية تارة، والدراميَّة تارة أخرى. وهو في هذا، وذاك، متَّسق مع نفسه أولا، ومع حركة الشعر العربي الحديث ثانيًا. فقد أشار غير واحد من الحداثيّين إلى أن الغنائية لم تـعُدْ تمثل التصنيف اللائق

بالشعر الحديث، فتحدثوا طويلا عن القصيدة السردية، والدرامية، والقصيدة الملحميَّة [5]. وواكب النقد الأدبي هذا التوجه، فأشارت خالدة سعيد في " حركيّة الإبداع في الأدب العربي الحديث " لبدايات هذا التوجُّه لدى أدونيس. وردّت

ظهوره إلى زمن مبكر، وهو العام 1945 عندما كتَبَ قصيدة " الفراغ " التي تجلى جوُّها الدرامي في توالي المشاهد التي أسْمَتها لوحاتٍ، ثم أتبعها بقصيدة أخرى بعنوان " مجنون بين الموتى" 1955وفيها محاولاتٌ واضحةٌ، وبيّنة، لإغناء القصيدة بالعناصر الدراميّة، كتعدُّد الأصْوات، والأبْعاد، فضلا عن النظر إلى جوانبِ الإضاءَة [6].

وتعليقاتُ خالدة سعيد هذه توافق بعض ما يذهب إليه القيسي، في الكلام على تجربته في تخطي قواعد التصنيف النَوْعي للشعر الغنائي، فقد نبَّه- هو الآخر- على أنَّ التجربة – بما فيها من قوَّة – تجعل من التنظيم الهندسي المُسبق للقصيدة شيئًا لاغيًا، لأن المضمون نفسه يتطلب الشكل المناسب، يقول: " هذا التبدُّل، الذي طرأ على شكل القصيدة في تجاربي، لم يكنْ جريًا وراءَ الأشكال، أو قفزًا في الفـــــراغ، وإنَّـــــما هو شيءٌ اقتضته طبيعة التجربة المَعيشة، والحاجة النفسية، بما يمكن القول: إنَّ المضمون يستولد شكله بنفسه، ويحدِّده " [7]. وهذا تقريبًا ما تذهب إليه خالدة سعيد بقولها: " لا وجودَ، عادةً، لما يسمى بالمضمون والشكل، فنحن إزاء الشكل/ المضمون، لأنَّ ما يُسمى شكلا - عادَة - يتخذ هنا طبيعة جديدة، ويصبحُ موقفاً ونظامًا من العلاقاتِ الداخليَّة ."[8] وهذا ما عناه أيضًا محمد مفتاح بقوله: " بين الاسْتسلام، والرجاء، والرهبة، ما يجعل من تصنيف القصيدة على أنها غنائيَّةٌ حسْب، تصنيفًا غيرَ دقيقٍ، إذ لا بدَّ من الاعتراف بأنَّ في القصيدة التي من هذا النوع شيئًا من المأسَويّ، والملحميّ." [9]

والمتتَبِعُ لنتاج محمد القيسي، بدءًا من ديوانه "راية في الريح " 1968، وحتى روايته " شرفة في قفص" 2004 يكتشفُ أنه أمام نسيج، أو فُسَيْفساء، تجمَعُ في النص الواحد أكثر من نوع أدبي. ففي ديوانه الأول" راية في الريح " الذي ينمُّ

عنوانه على إحساس الشاعر الشديد بالغربة الطويلة عن بلاده، ينْقَلتُ النصُّ من المحدود الخاصّ إلى فضاء المُطلق، ليستوعبَ مقاطع مجتزأة من التراث الشعبيّ الغنائيّ الفلسطينيّ (الوافر):

ومات الصبح مخنوقاً على بوَّابة الأحزان
يا تعبي يا شقايْ
يا شماتة عِدايْ [10]

ويكادُ لا يخلو نصٌّ من الديوان من مقاطع فولكلورية، بعضُها يذكر فيه الدار، وبعضها يذكر فيه البندقية " البارودة " التي طلَّتْ، وغابَ صاحبُها :

بارودة يا مْجوهَرَة شكّالك وين
شكالك عَ عاداتو سرى في الليل [11]

وفي قصيدةٍ له أخرى عنوانها " تورقُ الأشْجار" من ديوانه الثاني " خماسية الموت و الحياة "1970 نجده يورد اقتباساتٍ من ذلك الغناء الشَعْبي، مُؤكدًا أن هذا الغناء مصْدرٌ أساسيٌ من مَصادر تجربته الفنيَّة الغنيَّة منذ البدء، وربما كان ذلك عائدًا لكثرة ما سَمع من أغاني كانتْ تردِّدُها أمُّه حَمْدة في بدايات الهجرة [12].

ونجد للمواويل الفلسطينيّة حضورًا مكثفًا في شعره المتقدم منه، والمتأخِّر، وحتى قصيدة " رياح عز الدين القسام " لم تخلُ هي الأخرى من هذا التواصل مع الأغنية الشعبية الدارجة، والمواويل :

جسمي تقطّعْ، وجرْحي طالْ يا مولايْ
واقلامْ صبري براها الهمّ يا مولايْ [13]

على أن ديوانه الثاني، وهو "خماسية الحب والحياة " 1970 تجاورتْ فيه القصيدتان الغنائية، والدرامية، جنبًا إلى جنب، ولا سيَّما القصيدة الموسومة

بالعنوان " أيتها الغربة وداعًا " [14] ففيها يجد القارئ تعددًا في الأصوات، وسَرْدًا، وحوارًا، واعتمادًا على القِناع. ومن مظاهر الخروج على أساسيَّات النوع الغنائي الإفلات من أسْر النظم، واتخاذ النثر وسيلة بنائيَّة للشِعْر. فقد أورد في القصيدة ملاحظة يقولُ فيها " في ذلك اليوم بكت طفلتان، صغيرتان، لأنَّ أباهما تأخّر عن موعده، ولم يعُدْ للبيت، كانتا تنتظران أنْ يحمل لهما حبًا، وأمنًا، وحلوى، وربما كانتا جائعَتَيْن. "[15] فورود هذه الملاحظة في وَسَط النصّ إيذانٌ بالمزج الواضح بين النظم والنثر في القصيدة الغنائية الواحدة، تلك القصيدة التي امتدَّتْ، واتسعت، لتستوعب الحسَّ الدراميّ، الذي يتجلى في تصوير النموذج خالد. واتخاذ القناع مظهرًا فنيًا يُخفي صوت الشاعر[16] وفي هذا المَقام يشرح لنا القيسي انفراد شعره بالبحث عن نقاط يلتقي فيها الغنائي بغيره من الأنواع الشعرية، مؤكِّدًا " قصيدتي صورةٌ عنّي " [17] ففي قصيدة له بعنوان " حين قال سامـــِر لا .. فـي المواجهة الأولى" وهي من الديوان الثالث " رياح عزالدين القسام " 1974 تطالعُنا القصيدة المُمَسْرحة، فكأننا أمام دراما حقيقية بما تنْماز به من تعدُّد في الأصوات، ومن ترتيبٍ في الأدوار، ومن إيضاحٍ في المشهد، ببعْدَيْه ؛ الزماني والمكاني (المتدارك) :

أرضٌ واسعةٌ وخَلاء
أشْبهُ بالمسْرح
يتَجَمْهَرُ خلقٌ وإضاءَة
فوضى أصواتٍ مُتداخلةٍ
يملأ أرجاءَ المطْرح
يتوسَّطُ دائرةَ الضوء

شيءٌ كالصَمْتْ [18]

ففي هذه القصيدة حركة مسرحية لافتة، أصواتٌ، ومكانٌ، وإضاءةٌ، وأدْوارٌ؛ وامْرأة، وسامِرٌ، ويظهر هذا التعدُّد، والتنوُّع، في قصيدة " رياح عز الدين القسام جزء من حديث ذاتَ ليْلة باردة [19] " التي مزج فيها بين الحوار الدراميّ، والمَتْن الحكائي، والتشْخيص، وفوق ذلك كله يشتعل في القصيدة الإحساسُ المُفْعَم بالزمن (المتدارك):

قال أبو حسن اللداوي
– وأبو حسنٍ هذا يعمل حمَّالا
أحيانًا ماسِحَ أحْذيةٍ
عاملَ مقهى
أحيانًا يتجوَّل بين الأحياء يبيعُ الترْمُس للأولاد
ويملكُ صنْدوقَ عجَب [20]

فهذا الاقتباسُ يوضِّح للقارئ أنَّ اللغة - ها هنا - ليست لغة القصيدة الغنائية ذات الغِنى المَجازي، والثراء التصْويريّ، بقدر ما هي لغة نصٍّ سرديٍّ تقتربُ من لغة الحديث اليومي. فهي تصفُ شخصًا، وتذكر بعض نُعوته، وتقلُّبَ أحواله في العمل بين لحظةٍ، وأخرى. والقصيدة – بهذا المعنى- نصٌّ مفتوحٌ لا يعترفُ بالحواجز التي تفصل بين نوع شعري وآخر، وإنما هي نوع يستوعب السردَ، والحوار، والوَصْف، والحكاية بصفةٍ عامَّة، والمثل الشعبيَّ، والمَواويلَ، والأغاني الفولكلورية، فكأنَّ غايته فيها أنْ يقدم نصًا مسرحيًا يمتزج الصمتُ فيه بالحوار، والتحليل الداخلي بمواقف الشخوص ((21). ولعل هذا ما نبَّهت عليه ليلى السائح في وصفها قصيدة القيسي، بالقول: " إنها استحضارٌ لآفاقٍ أوْسعَ ممّا تتسع له

القصيدة الغنائية المعروفة، وأرْحَب. فالحوارُ فيها يؤدي إلى صياغة دراميَّة جديدة" [22]. وهذا لا يعْني أنّ القيسي تخلّى- تمامًا -عن نَفَسِه الغنائي، فهْو ينْفي ذلك، مؤكدًا في واحدة من مقابلاته الصحفية " تظلُّ القصيدة الغنائِيَّة هي مُتَنفَّسي، ومِزْماري " [23].

ولهذا نجدهُ في " الحِدادُ يليق بحيفا " يعمِّق التأكيد على الطابع الغنائي لشعره، دون الانغلاق أمام التصنيفاتِ الأخرى. يقول في واحدة من قصائده(المتقارب):

لماذا أتيتَ
لأعرفَ نفسي
وماذا رأيتَ
طيورًا مُحلِّقَةً في الفضاءْ [24]

فهذا حوارٌ في قصيدةٍ غنائيةٍ يجعل منها نصًا يخلو خلوًا واضحًا من نقاء النوع الغنائي. فالمونولوج الدرامي المتَّبعُ في بناء القصيدة يبتعد بها عن الغنائي، ويقتربُ بها من المسرحي، والدرامي، وإلى هذا تنضم تجاربُه اللاحقةُ في " إناء لأزهار سارا.. زعتر لأيتامها " حيثُ القصيدةُ التي تستوعبُ، إلى جانب شعر التفعيلة المنظوم، شيئا من النثر الإيقاعي، علاوة على التركيب الدرامي، الذي يطالعُنا منْ حينٍ لآخر(المتقارب):

وقال الأسيرُ
-أسجِّلُ موتي بعيدًا
وأحيا انتظاري
وألقي من الكوَّة الواطِئَة

وشاحَ المراثي
وتابعَ
سألقاكِ سيّدتي في مكانٍ جديدْ [25]

فالقارئ إذا توقف عند قوله " وتابَعَ " وتساءَل: أيُّ نوع من الأدب هو الذي يسْتخدم هذا الأسلوب في رصده للحدث، وحركيّة الحوار، والتَنقلَ من جزء إلى آخر بعده؟ لأجاب على الفور: إنه القصة، أو الرواية. وفي قصيدة (تهاليل) نجدُ نموذجًا واضِحًا جدًا لتعدُّد الأصوات: صوت الصدى، تهليلة الأم، تهليلة سارا، تهليلة نساء تلِّ الزعتر، وإذ يتفاعل القارئ بهذه القصيدة يجد نفسَهُ يقف إزاءَ موكب جنائزيّ يزفُّ شهيدًا يصورّهُ القيْسي في صور شتى، وبألوان متعدِّدة. ولا ريب في أنَّ تجربة القيْسي، في هذا النصّ، تستدعي وقفة أطول من هذه الوقفة أمام قصيدة مكتنزة بالتنوُّع الأجناسي.

وفي " اشتعالات عبدالله وأيامه " 1981 يعود القيسي إلى القِناع، مؤكدًا تحوُّله من القصيدة الذاتية الغنائية التي تتكئ على الصوْت المنفرد، إلى قصيدة يُتاح فيها للأصوات المتعدِّدة أنْ تتكلم، وتُسْمع، وإلى أسلوبٍ جديدٍ، ومُبْتكرٍ، في التعامُل مع التفاصيل اليومية الصغيرة في ارتباطها الحميم مَعَ الواقع، وهو ما يُطلق عليه تكنيك اللقطة في آمادٍ أوْسع. ففي بداية الديوان [26] يبدو الشاعر مُصوِّرًا يلتقط بآلته مناظرَ صغيرةً أشبه ما تكون بنواة قصة قصيرة، حيث الحركة الخارجية، أعني حركة الكاميرا، تؤدي دورًا جذريًا؛ فنجان القهوة، السيجارةُ الأولى، نافذة في البال، حديقة غافية، صوْتٌ ما يعبر الهاتِفَ، وكلُّ ذلك يخضع لإيقـــــاع موسيقي خافت بأقل قدر مُمْكن من الحركة، والصور، والكلمات. وبعد قليلٍ، من هذا كله، يندفع نحو مزيدٍ من التفاصيل، كما في عبدالله المِزْمار،

محافظاً على طابع الحركة القصصية: " شيءٌ ما يحدث خلف الباب" ثم تختلط الحركة بالمناجاة، وبالمونولوجات الداخلية، وبتداعيات الذاكرة[27].

وبدءًا بأرخبيل المسرَّات الميِّتة، الذي جاءَ صدوره بعد اشتعالات عبدالله وأيامه، بدأ نصُّ القيسي بالانفتاح أكثر فأكثر على الأنواع الشعرية الأخرى، ففي" كمْ يلزم من موْتٍ لنكونَ معًا " نجد في المعلقة الوداعية مزيجًا لطيفًا من شعر التفعيلة (الحرّ) وشعر الشطرين/ العمودي[28] – مثلما يسمّيهِ بعضُهم تسْميَة خاطِئَة - وفي القصيدة المؤسومة بعنوان " ألوان" يمحو الفوارق بين الشعر الموزون والنثر[29] واللافت أننا نجد عند القيسي – في هذه المرحلة- شعرًا يقتربُ به من النظم القرآني الذي يؤَكِّدُ على فواتح القصيدة محاكاةً لفواتح السور في الكتاب المَجيد، وعلى توظيفِ ما يُعرف بالفاصِلةِ الوَزْنية (المتقارب):

واو .. طاء.. نونْ
حجرٌ مسنون
هذا قلبي
حتى يبْتَلجُ الفجر المكنون
ويكونُ نكون[30]

وتُعدُّ قصيدته (الوقوف في جرش) نموذجًا للقصيدة المنفتحة على أجناس أدبيَّة متعددة. ففيها يجتمع الشعرالكلاسيكي، إذا ساغ التعبير، بشعر التفعيلة الواحدة، مع الخروج على الوزْن، والالتقاء بما يسمى قصيدة النثر. ولقد جاءت القصيدة طويلة بعض الطول، خلافًا لقصائده في ديوان " منازل في الأفق " الذي اقتربَ فيه من قصيدة "الهايكو" اليابانية. وهي قصيدة قصيرة تتألف من سطرين، أو ثلاثة، ولكنَّ القيسي – بالطبع- لم يتقيَّد بأسلوب الهايكو، وإنما جعل القصيدة

القصيرة أكثر طولا، صحيحٌ أنها في بضع كلمات، لكنها تعبر تعبيرًا مكثّفًا عن حالاتٍ قصوى من القلق، والمُعاناة، تتخلَّلها لفتاتٌ من الشاعر نحو حوار داخلي، مستخدمًا الرمز بالأشخاص، واقتباسات من الفولكلور، والتراث، والأساطير. وفي ديوانه منمنمات أليسا (2002) يجد القارئ توسُّعا في استخدام الهايكو في شيء من التحفظ، فقصائد هذا الديوان تقتربُ من الرقاع، أو التوقيعات، في عَدَدٍ من الأبيات محدودةٍ جدًا [31]. ومع قصرها توحي بالشيء الكثير الذي لا يَنْصبُّ على محتوى القصيدة حسْبُ، وإنما يوحي بالكثير من الإتقان الموسيقي، والتصويري في قصيدةٍ تكـــــادُ لا تتعدّى الوَمْضة من الشعْر، وهذا نصٌ أفاد فيه الشاعر من جرْس القافية أفادة لا تخفى (المتقارب):

حريرٌ مكَبَّل
ذراعُكِ هذا ومُخْمل
لموتي المؤجَّل
فلا تذهبي في الكلام بعيدًا
وتنسينَ
نسرينَ روحي تهدَّلْ
جوادي لعصفِ الرياحْ
وقلْبي ليرحَلْ[32]

فالتجانسُ الصوتي بين مكبل، ومخمل، وتهدل، ويرحل، شبيه بالقرْع المتواتر على طبْلة القلب. وهذا ما نقفُ عنده في تكراره اللافت لكلمة أغنّي في قصيدة أعارَها عنوانَ " أغنّي لها " [33] فهو، بتوظيفه جناس الاستهلال، يحيل تواتُرَ

الأبيات لأصداء متواصلة لنغمة مُمْتدة. ثم يلجأ إلى تقصير النَغْمة في نهاية القصيدة عن طريق اللعب بالضمائر(المتدارك):

عنقها فارع
جيدُها لا أسمّي
ويداها ضياءٌ
ولها نكهتي وجنوني
وبي ما بها من عَياءْ [34]

والأمثلة على هذا الإتقان البنائي للقصيدة القصيرة كثيرة، ومتكررة، في: رقعة، وحيرة، و بكاءٌ مؤجَّل، وصدى، وفراشات، وغيرها الكثير.

وُيعدّ "كتابُ حمْدَهْ " أحد النصوص التي يتخلى فيها القيسي عن الصفات النوعية لأيّ جنس أدبي، حيث الأغنية، والتعْليق، والتوقيع، والمقال، في محاولاتٍ لتنويع الصوْت المنفرد، الذاتي، واستيعاب الميثولوجيا المصرية، والأساطير الإغريقية القديمة، والساميّة، إضافة إلى أشكال من الغناء القديم، والندْبِ الشعبي، والأمثال، التي وظفها توظيفا يجعل من النص نصًا جامعًا لنُصوصٍ أخْرى.. فهو يتنقل بنا من التعاويذ، والنقوش، إلى كتابة نثريةٍ، وجدانيَّة، شفَّافة، ثم إلى ترويدة تعمِّق الإحساس ببدائيَّة الشعور بالفقد، وعمق الإحساس بعفَويّة الكلمات.. وإلى هذا يشير فخري صالح في مقالٍ عن "كتاب حمْدَهْ ": " فالقيسي في "كتاب حمدهْ " يبني عمَلا مختلفًا اختلافًا جَذْريًا عن نتاجه السابق، فهو يجْمعُ بين الشعر، والنثر، وأشكال الغناء الشعبي، والندْب، مطعِّمًا ذلك كله بلغة قرآنيّة أحْيانًا، وإنجيلية أحْيانًا أخرى " [35]

والمزجُ بين الشعر، والنثر، في " شَتاتِ الواحِد " أوضحُ من أنْ يخفى على أحد، على سبيل المثال هـــذا

الجزء من نصٍّ بعنوان " نُزُلٌ طارئ "(المتدارك):

السلام على من نجا منهمو
وتشاغل عني كأنْ لم يشقني
السلام السلام
ذهبوا
وأنا
والسراط
نتقاسم
هذي السياط [36]

فليس في هذا الاقتباس من النَظْم سوى بعض السجع، والتكرار، وفيما عدا ذلك لا يشعر المتلقي بإزائه أنه يقرأ شعرًا منظومًا كغيره من شعر القيْسي، وهو بترتيبه الكلمات ترتيبًا تحتل فيه الكلمة الواحدة سطرًا مستقلا يُفصح لنا عن سعيه الدائم للتجديد، وتخطيه سياج الشكل المألوف. وفي ديوانه " عائلة المُشاة " تلتقي القصيدة السيرة بالاعْتراف، وبأدب الرحلات، مع الحفاظ على المناخ الشعري الذي يكتنفُ الكتاب. يقول القيسي معقبًا على من يرى هذا الرأي، وما فيه من التنوع الأجناسي: " من الطبيعي إذا أن يكون عائلة المشاة مكتوبًا بمنطق أجناسيٍّ مُغاير للمَنْطق الشعري. لأنه في الأساس ليس بديوان شعر، ولا قصّة قصيرة، لعله رواية، أو لعله ذلك كله، في الوقت الذي يُعدّ فيه كتابـةً لا تـقـدِّس الحدود،

وإنما تنزع إلى فضاء تتآلف فيه اشكالٌ، وأجناس. إن عائلة المشاة تعبيرٌ عن ضيقي بالقصيدة ذاتِ الصوت المُنفرد، والدخول في رحاب الحياة، والوقت، والذاكرة. " (37)

وهذا قد يُفَسِّر – في رأينا – لجوءَه فيما بعد للرواية في " الحديقة السرية " (38) وفي " شُرفة في قفص " (39) وحتى في هاتيْن الروايتيْن لا تفارقه نزعته الغنائية الشجيَّة عالية النبرة. بدليل أن الروايتيْن تدوران حول حياته الشخصيَّة، وتجاربه الذاتية، فنحن نسمع فيهما صوت الشاعر بدلا من أصوات الشخوص. وكانتْ الروايتان قد كتبتا بلغة شعرية مليئة بالانزياحات، والمجازات المكثَّفة، والشرائح الوَصْفية التي تعيدنا إلى أجواء الرسائل المتبادلة، والبوح الذاتي، والعواطف اللاهبة التي تنْحرف بالسرد القصصي من الكتابة بلغة الحديث اليومي إلى الكتابة بلغة رفيعة المستوى، غنية الأسلوب بالمجاز إلى حدّ الترَف. وهذا ما يذكرنا برأي أرسطو الذي لم يفته القوْلُ – وهو يفـرّق بين فنّـــيْ الملهاة، والمأساة- إنّ الأول يُكتب بأسلوب عاديّ يحاكي فيه المؤلفُ كلام الأراذل من الناس، في حين أن المأساة تُكْتبُ بأسلوبٍ أدبيّ رفيع(40) .

وإذا أخذنا هذا في الحُسبان – إلى جانب ما سبق- عرفنا إلى أيّ حدٍّ كانت كتابة القيسي للرواية شعريَّة الطابع، ذاتيَّة المُحتوى. بكلمة أخرى أكثر إيجازًا، نجد القيسي في أعماله نموذجًا لما يسميه جيرار جانيت بالنصِّ المتعالي، أو جامع النصوص *Architects* وهو النصُّ الذي تتجلى فيه خصائصُ أنواع من النصوص من غير أن يكون مُعادلا لأيّ نوع من تلك الأنواع(41)، وهو شبيهٌ بما يسميه إدوارد الخراط بـ " الكتابة عبر النوعيَّة "، وهي تلك التي تحتوي خصائص النوع التقليديَّة، وتتجاوزُها - في الوقت ذاته- إلى خصائص أنواع أخرى (42).

الهوامش

1. يوسف عبد العزيز: حوار مع محمد القيسي، مجلة عمان، ع95، أيار 2003 ص 15- 16
2. دار العودة، بيروت، 1968
3. دار العودة، بيروت، 1970
4. وزارة الإعلام والثقافة، بغداد، 1974
5. .محمد بنيس، الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاته، طوبقال للنشر، الدار البيضاء، بلا تاريخ، 28/4
6. .خالدة سعيد: حركية الإبداع في الأدب العربي الحديث، دار العودة، بيروت، 1979، ص 101
7. محمد العامري: المغني الجوال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2001 ص 64
8. حركية الإبداع، مصدر سابق، ص 100
9. محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، دار التنوير والمركز الثقافي العربي، بيروت؛ والدار البيضاء، ط1، 1985 ص 39
10. محمد القيسي: الأعمال الشعرية، ص58
11. المصدر السابق، ص ص 80- 81
12. إبراهيم خليل: محمد القيسي الشاعر والنص، ص 35
13. الأعمال الشعرية، ص191 وانظر: ص45 ومابعدها.
14. السابق، ص 129
15. السابق، ص 132
16. إبراهيم خليل: السابق، ص ص 41- 42
17. العامري، ص 58
18. الأعمال الشعرية، ص 159
19. السابق، ص 191
20. السابق، ص 194
21. خليل، السابق، ص 42
22. العامري، السابق، ص ص 200- 201

23. السابق، ص 42
24. السابق، ص 194
25. خليل، السابق، ص 42
26. صدرت الطبعة الأولى منه عام 1981
27. العامري، السابق، ص 223
28. الأعمال الشعرية، ص 436
29. السابق، ص 487
30. السابق، ص 508
31. للمزيد انظر: كينيث ياسودا، واحدة بعد أخرى- دراسات في جمالية قصيدة الهايكو، ترجمة محمد الأسعد، الكويت، ط1، 1999
32. محمد القيسي: منمنمات أليسا، ط1، الهيئة العليا لعمان عاصمة الثقافة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2002
33. منمنمات أليسا، ص 22
34. السابق، ص 25
35. نقلا عن الموقد واللهب، مصدر سابق، ص 18
36. محمد القيسي، شتات الواحد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1989 ص129
37. محمد القيسي، الموقد واللهب، ص ص 38- 39
38. صدرت عن دار الآداب، بيروت، 2002 وانظر: لغز الأنا في نثر القيسي وشعره، مجلة أوراق، ع 18 خريف 2004 ص ص 83- 88 وانظر ص143 من هذا الكتاب.
39. صدرت في طبعتها الأولى عن دار الآداب، ببيروت، 2004
40. رشيد يحياوي، مقدمات في نظرية الأنواع الأدبية، أفريقيا الشرق ، الدرا البيضاء، ط2، 1994 ص 46 وانظر ص139 وما بعدها من هذا الكتاب.
41. فتحية عبدالله، إشكالية تصنيف الأجناس الأدبية، عالم الفكر، الكويت، ع 1، مج 33، أيلول- سبتمبر 2004 ص 185
42. السابق نفسه، ص 201

الفصل السابع
منمنمات أليسا

يثير عنوان المجموعة الشعرية " منَمْنمات أليسا " طائفة من التداعيات، فكلمة منمنمات توصف بها عادة أعمال النقش والحفر في النحاس، والمعادن، وربما تجاوزت ذلك إلى مواد أخرى تستخدم في البناء والمعمار، أو الحلي من فضةٍ، وذهب، وغيره. فذلك كله يعتمد على الزخرف الذي يجعل البناء، أوالحليّ، غاية في الروعة، والإشراق. نقول: إن هذا العنوان – ابتداءً- يحيلنا إلى فن من الكتابة الشعرية يقوم على الزخرف البياني، والموسيقي، وعلى التوشيح والتطريز الإيقاعي، وعلى الرقش، والتصاوير، والأشكال، والأيقونات اللفظية، التي يعمد إليها الشاعر في مسعاه الدائب ليجعل إحساساته التي يريد التعبير عنها جليَّة، واضحة، في النص، ملموسة من خلال الصوْت، والحرف، والكلمة، شكلا دالا ومدلولا، متشكلا عبر الخطوط. وهذا شيء يدفع بالكتابة الشعرية إلى الامتثال لقواعد الرسم بالألفاظ، تصديقًا للقول المأثور: الشعر رسمٌ ناطق، والرسمُ شعرٌ صامت، مثلما يدفع بها إلى العناية بالمسموع، والمطعوم، والمشموم، وكأنها تخاطب الحواس مباشرة: حواسِّ القارئ بأسرها لا ذائقته الفنية وحدها مثلما يُظنُّ، ويُخال.

ولا يناسب هذا اللون من الشعر إلا قصار القصائد، التي تلتقي، أو تفترق، ولكنها تتفاعل في إطار شمولي يجعلها في الوقت الذي تنْبني فيه تسهم في بناء آخر عضويّ. فمُنَمْنمات آخر القرن، مثلا، وأحوال أليسا، والطريق إلى إيثاكا، والوقوف

بباب الشام، أشبه ما تكون بفصول كتابٍ نثري. وكل فصل من هذه الفصول يضم في إطاره عددًا من المقطوعات، والفِصَل التي يتشكل منها نسيج الديوان. وهذا النسيج سُداهُ ولحمته تلك الخيوط التي تصطبغ بصبغة وجدانية واحدة، هي الشعور الفائق بالحزن، والإحساس العميق بدنوِّ الرحلة من خاتمة المطاف (المتدارك):

ينبِّئُني النورسُ
أن أغانيَّ .. تضيعُ على البحرِ
يمتد على الأرضِ عويلي
ينبئني الأحدُ الدامي
أن الليل يمر بطيئًا
ويطولُ على شباك الصيفِ
ذُبولي[1]

وإحساسُ الشاعر بأنه مهدَّدٌ، وأن الحزن والألم يطاردانه أينما حلَّ، وكانَ، يجعله يتصوَّرُ الليل سقفًا يهبط عليه تدريجًا، وأنَّ كلَّ منْ أحبَّهم ضاعوا في الشعاب، ولم يبق منهم إلا من شيَّعته الريح، فحتى المرأة، التي هي واحة العشق الظامئ، في صحراء العطش المترامي، واستراحة الفارس المتعب، تتحول بالتدريج إلى نرجس في نداءات القلب الجريح، الظمآن،

بما في ذلك من دلالاتٍ ثرية (المتقارب والمتدارك):

لقد بعُد الحجيجُ
وضاع أهلي في الشِعابِ
ومنْ تبقّى
شيَّعَتْه الريحُ في الوديانْ
تعالْ

خفقةً لدمي
تعاليْ
نرجسًا ظمآنْ[2]

وقصائدهُ في مُنَمْنمات آخر القرن تشبهُ رقاعًا، أو توقيعاتٍ، أو مجموعات من الأبيات المحدودة العدد التي تذكرنا بقصائد الهايكو الياباني[3] فمع قصرها توحي بالكثير الذي لا يُعْنى بالمحتوى حسب، بل بالإتقان الصوتي، والتصويري، في القصيدة. يقول في قصيدة حرير مُكبَّل(متقارب):

حريرٌ مكبَّل
ذراعُكِ هذا، ومُخْمل
لموتي المؤَجَّلْ
فلا تذهبي في الكلام بعيدًا
وتنسينَ
نسْرين روحي تهدَّلْ
جوادي لعصْفِ الرياحِ
وقلبي ليرْحَلْ[4]

فالتجانس الصوتي في مكبل، ومخمل، وتهدل، ويرحل، أشبه ما يكون بتجانس القرع على طبلة القلب. وهذا ما نقف عليه في تكريره لكلمة " أغنّي" في قصيدة أعارها عنوان " أغنّي لها " [5] فهو بتوظيفه لجناس الاستهلال يجعل من تدفق الأبيات اللاحقة للازمة " أغني " أصداءً متواصلة لنغمة واحدة، ممتدة، ثم يلجأ إلى تقصير النغمة في نهاية القصيدة عن طريق اللعب بالكلمات، وبالنُعوت، وبالضمائِر(المتدارك):

عنقُها فارعٌ
جيدُها لا أسمّي

ويداها ضياءٌ
ولها نكْهتي، وجُنوني،
وبي ما بها منْ عَياءْ [6]

والأمثلة على هذا الإتقان البنائي للقصيدة القصيرة كثيرةٌ، ومتكرّرَة في: رقعة، وحيرة، وبكاء مؤجَّل، وصدى، والفراشات، وغيرها الكثير..ويعدل الشاعرُ عن توزيعه الموسيقي الملازم للقصائد القصار إلى بنية أخرى تميل فيها القصيدة إلى شيءٍ من الطول. وتتَنَوَّع به السبلُ، والطرائقُ، في التعبير عن إحساسه القويّ بجماليات الألفاظ، ولهذا لا نفاجأ إذا جاءتْ أولى قصائد

الباب الثاني من أبواب الديوان بعنوان "مُنَمْنماتٌ فارسيَّة ". وهو عنوان يعيد القارئ بلا ريب إلى ما في السجاد الفارسي(العجمي)أو الإيراني من فنون التَعْريق، والوشي، والتطريز. فالقصيدة تستوحي، في الواقع، تلك الفنون من خلال التكرار الملحوظ لأشكال التماثُل، والتناسُب، والتناظُر الصوْتي، أبرزُها المقطع الذي تنتهي به ألفاظ من مثل: كلمات، أغنيات، قبّرات، فلوات، صَبَوات، شبُهات، وشَتات، وهِبات.. فضلا عن تكراره لمفردة "كلمات " غير مرة، إلى جانب تكراره لمقطع كامل في بداية كلِّ جزءٍ من القصيدة، وهو:

خفَقَتْ
بين يديكِ الكلماتْ [7]

ولبيان روْعة الجرْس الذي اعْتُمِد فيه على التدوير، نذكر المقطع الآتي للتمثيل، لا أكثر(المتدارك):

وتوضأتُ على
مدخل طهرانَ
بآياتٍ من العِشقِ

تقدَّمتُ
وحمراءُ مندَّاةٌ بالانفاسِ
فقدّمتُ لكِ الوردةَ بين الناسِ
ضيفًا كُنتُ
يا بنْتَ جلال الدينِ
ضيفًا في أراضيكِ
غزيرَ الصَبَواتْ
خفقتْ بين يديكِ الكلماتْ (8)

أما قصيدته " صالة موسيقى " فهي الأخرى لا تعدو أن تكون غزلا رقيقا مادته الأساسية الأصوات التي تتوخى الانسجام، والاتساق، والتناسُب (المتدارك):

بيتُها قرْبَ بيت الأمير
وحرّاسُها يَقِظونْ
وأنا من أكون
غيرَ هذا المغنّي
وقد لفَحَتْه بأهدابِها
وَسَوادِ العِيونْ (9)

واستمرار القصيدة على هذا النسق يجعل منها - في الحقيقة - مَعْزوفة عالية الإيقاع، وإنْ كان المَدْلول فيها ليس بأقلَّ من ذلك غزارةً، وعلوًا. فإذا وقفنا إزاء آخر المقطع المذكور آنفا، وجدنا القيْسي بلمْسَةٍ سحريةٍ من كلماته التي تشبه لمَسات الفرشاة لدى الفنان البارع، يصوِّرُ تأثيرَ المرأةِ في العاشق: لفحته بأهدابها وسواد العيون.. فأيُّ مجازٍ حيويٍّ مُبْتكر هذا الذي يخترعه جاعلا من الأهْداب نارًا تلفحُ، ومن سواد العيون

ضِرامًا يصْهَرُ القلب؟ وما تلك الصورة التي تصفُ العاشق متأثرًا بذلك السحر الذي صُوِّب نحـــــوهُ، فلم يعُـــدْ

قادرًا على الخروج من دائرة الأثر بالتعبير الطُقوسيّ (المتقارب) :

تأملتُني
وتَرَا
قلقًا في وجوهي
تأملتُها
نايَ صمْتي
وحنْجَرتي
تأملتُها من جديدٍ
تأملتُها
قلتُ لي:
وَلْيَكُنْ ما يكونُ [10]

ويواصلُ الشاعر القيسي نحْتَ نمْناتِهِ الشعرية، وإيقاعاته الرخيمة، في أكثر قصائده التي يتألف منها هذا الباب. فهي موسيقى من الأغصان تارة، وأغنية بالأبيض تارة، ورنينٌ في بعْضها تارة، وغيتار أغفى في بعضها تارةً أخرى. وهي موسيقى تنساب، وصوت ناي، وسوارٌ مَوْشوم بالآيات، ومِزْمارٌ تنْحلُّ أنغامهُ، وتذوبُ، في رواق تتلوّى فيه النَغَمات، أو وترٌ يتحرّك مُتَذبذبًا لبكاءِ يمامة (الكامل):

يبكي عليها السورُ والحجرُ
يبكي مُحبٌ باتَ ينتظرُ
ويمامة عند اللوى نقرتْ
شبَّاكهُ فتحرَّكَ الوَترُ

جمعتْ خيوط بريقها ونأتْ
بيْنا هنا تتناثرُ الصُوَرُ
وأنا المريضُ- مريضُها- وأنا
هذا الشتاتُ فكيفَ أصْطَبرُ
يا أوَّلَ امرأةٍ تنازعُني
في فضّ ألغازي وَتَنْتَحِرُ (11)

ولا يفتأ القيسي يردّدُ ألفاظ الرحيل، والسفر، والطريق، والعودة، والحنين، والتوْق، والشوق، مما يجعل شعره دائم البحث عن المكان، والسعي لتحقيق ما ليس في الإمكان. ولذا يجيء باب في الديوان بعنوان " الطريق إلى إيثاكا " توكيدًا لهذا المسعى، وترجمة لهاتيك الهواجس. ولعل القارئ الحصيف على دراية بما تعنيه هذه المدينة في الأدب. فهي ترد في الأساطير الإغريقية القديمة، وفيها تقيم بنيلوب تنتظر حبيبها أودسيوس بطل الملحمة المعروفة باسم الأودسّا، وهو البطل التائه في البحار، تنتظره مدة من الزمن غير قصيرة على الرغم من العشاق الكثيرين الذين حاولوا ثنيها عن هذا الانتظار، والظفر بخطيب منهم يكون زوجًا لها بدلا من حبيب القلب الذي لا أحد يعرف مصيره. فكانت تخدعُهم، وتواصل خداعهم، بحياكة الصوف، ونكثه. وحتى، في هذا الباب، الذي يتَّخذ فيه من حكاية بنيلوب أسطورة يوظفها في التعبير عن حزنه وأساه، نجده لا ينثني يستخدم الكلمات استخدامًا موسيقيًا، جاعلا من الأصوات في بعْض صورها النغمية هديلا كهديل الحمام، ومن الألفاظ ذبذباتٍ وتريةً تتداخل، وتأتلفُ، في تناسُق غريبٍ، وعجيب:

علقت غيتاري
ورُحْتُ أمشِّطُ الأضلاعَ والطرقاتِ
أحْصي غيْم مَنْ ركضوا

وراءَ غزالةٍ وتسلْسَلوا
في الريح أجنحةً
وحاموا
علقت غيتاري إذًا
وأقمْتُ حيث هُمو أقاموا [12]

وعلى هذا النحو يظلُّ القيسي يغني، ويغني، مؤكدًا رأيه بنفسه، وأنه عازفُ غيتار متجوّل، وعازفُ كمان متأصِّل، ولا نجد ما نختَتِمُ به هذا الفصل عن ديوان منمنمات أليسا خيرًا من المقطع الأخير الذي يُنْهي بهِ قصيدة " غلاف بنيلوب" لافتَيِنَ نظر القارئ لما فيهِ من حُسْن الإيقاع، وحلاوَة الجرْس (المتقارب):

على أن قلبي
حفيف الأغاني يشفّ
وأعرف أنيَ نصفُ
وأنكِ نصفُ
وأنا انشطرنا إلى جهتينِ
فغرَّبَ إلفُ
وشرَّقَ إلفُ [13]

الهوامش

---

1. محمد القيسي:**منمنمات أليسا**، ط1، اللجنة الوطنية، عمان؛ والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2002
2. المصدر السابق نفسه، ص 12
3. للمزيد انظر: كينيث ياسودا،واحدة بعد الأخرى، دراسة في جماليات قصيدة الهايكو اليابانية، ترجمة محمد الأسعد، ط1، الكويت، 1999 وانظر الفصل السابق، ص127

4.القيسي، منمنمات أليسا، ص 22
5. السابق نفسه، ص 24
6. السابق، ص 25
7. السابق، ص 43 .
8. السابق، ص 46
9. السابق، ص 50
10.السابق، ص ص 52- 53
11.السابق، ص ص87- 88
12.السابق، ص ص94- 95
13.السابق، ص 109

الفصل الثامن
لغز الأنا وإشكالية التجنيس

إذا صح ما يذهب إليه فرويد، وغيره، من أرباب التحليل النفسي من أنَّ السنوات الأولى من عمر الطفل بمجرياتها هي التي تحدد مستقبله ، ومصيره، وترسم بدقة فوتغرافية ملامح الرجل الذي سيكون، متأثرًا بجُلّ ما مرَّ به من تجارب ؛ فإن القيسي الذي فُجعَ- وعمره أربع سنوات- بمقتل أبيه، على النحو الذي أخبرنا به في إحدى قصائده، كانت قد حددت طبيعة شخصيته منذ ذلك الحين. وأهم ما تنطوي عليه تلك الشخصية احتياجٌ شديدٌ للمال، وتعلق أوديبي بالأم. وقد يفسِّر هذا الافتراض حضورَ الأنا، ولغزهُ المتكرر، في شعره، ونثره [1].

ولعل الذين عرفوه، وأدركوا مثلما أدركت- أنا شخصيا - مبلغ اعتداده بنفسه، وتعاليه على غيره من الشعراء، والإحساس العارم بتضخم الأنا، وشدة عشقه للنساء، ولهاثه وراءهن، وحرصَه الذي لا يبلغ حد الشح على المال، يجدون في هذا الوصف لتكوينه النفسي ما يفسر ذلك تفسيرًا مقنعًا، ومقبولا، إلى حدٍّ كبير.

---

(1) مستخرج من مجلة أوراق، رابطة الكتاب الأردنيين ، عمان،ع19/18 نيسان 2004 ص ص 83 – 88 وقد صدف وأنا أتصفح عددًا من المجلة الأردنية للغة العربية وآدابها (مج9، ع2، س 2013) أن وقع نظري على بحث للدكتورة نوال بنت ناصر بن محمد السويلم من جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن في الرياض عن الرواية، وعلاقتها بالأجناس الأدبية، وقد أفادت فيه الباحثة من المعلومات الشخصيّة التي يتضمنها ذلك المقال، إلا أنها للأسف لم تشر لذلك، ولم تحِلْ للعدَد المذكور من أوراق.ومما يؤكد- ها هنا- شبهة السرقة كون هذه المعلومات لا يحيط بها إلا من هو على علاقة شخصية بالمرحوم محمد القيسي.

لقد أورد توفيق صايغ في كتابه أضواء جديدة على جبران (1966) رسائل عدة كتبها الأديب المهجري اللامع إلى صديقته ماري هاسكل يُستشف منها أنه كان شديد التعلق بأمه، وأنه ما اجتمع مرَّة، بماري هذه، إلا وأحسّ بأنه في منزله، وأنَّ حضورها يشبه حضور أمّه، وأنه، إلى جانبها يشبه طفلا بين ذراعيْ والدته الحنون. فقد ذكر في واحدة من تلك الرسائل أن النساء اللواتي أحبَّهن، كانت كل واحدة منهن تشبه أمه من أحد الوجوه. ويكتبُ مرةً إلى ماري واصفًا المرأة التي أغوتْه بأنَّ فيها قدرًا كبيرًا من صفات أمّه. وفي رسالة مؤرخة بسنة 1921 يؤكد لها أنها المرأة الوحيدة، في العالم، التي يحسُّ في حضورها، بأنه كالطفل أمامَ أمِّه. ويتحدث عن الدفء، والحنان، اللذيْن يشعرُ بهما لديها، قائلاً : " إن قلب الأم، وحْدهُ، هو الذي يُمْكن أن يعْطيَني هذا الدفء ". ويشير خليل حاوي في دراسته لجبران في الكتاب الذي صدر بُعَيْد وفاته " في فلسفة الشعر والحضارة" إلى أنَّ جبرانَ أحبّ في أول صباه فتاةً تكبُرهُ بعاميْن اثنيْن. وأنّ جلَّ اللواتي وقع في غرامِهنّ متزوجاتٌ مثل ماري قهْوَجي، وماري خوري.

وفي رواية القيسي الحديقة السرية (2002) التي كتبَها على نسق رواية" علاقات خطرة " للفرنسي دي لاكلو(1782) التي نوَّه إليها غير مرَّة في ثنايا الكتاب، نجدُ رسائلَ، ومُذكراتٍ. وفي بعضها يقفز شبح الأم على نحْو مباغتٍ لنرى من خلال الأحلام، والكوابيس، التي تراود البطل، تماهي المرأة المَعْشوقة بالأم على نحو ما يَذكر جبران. يصف الراوي – وهو ها هنا القيسي بالطبع – علاقته بالبطلة الصافية، قائلا :

" تقول لي أنتَ رجُلي، تقول لي، سيدي.. وتاج رأسي، لَكَمْ تكرر هذا القول ! وتدللني كطفل، مريض، وأنا فعلا مريضُها المجنون، الأليف، مثل دمعة سماوية، ولا

أريد من هذه الحياة كلها غير يدها الحانيَة تأخذني إليْها. "[1] ومثل هذا الوصف يوضّح - بما لا يدعُ مجالا للشك - أنَّ المؤلف الذي يتخيَّلُ نفسه طفلا بحاجةٍ إلى الهدهدة، إنما يعبر، بطريقة مباشرة، عن تعلقه بالأم، التي رحلت إلى العالم الآخر، وَوُريتْ الثرى منذ سنواتٍ عشر. ويكرّرُ هذا في موضع ثانٍ يُخاطب فيه تلك المرأة: " أريد أن تقرَئي هذه الكلمات. إذا مِتّ بعد قليل، أو هوَتِ الطائرة، لنْ يعرف أحدٌ كَمْ أحبكِ. ولنْ يعرف الناسُ كَمْ أصبحت عاشقا في عامي الأخير. أريد أنْ أبكي فَرِحًا بكِ، لا تظنّي أن الندى لمْ يبلّلني، أنا طِفلٌ كبير " [2].

ألا نجد في تكرار وصف الشاعر القيسي ذاته بالطفل الكبير، الراغب في حنان منْ تدلّلُه، أو أنه طفل حسب، تعبيرًا غير واعٍ عن عشقٍ طفولي لشخصيَّة الأم ؟ وقد تكتنفُ الشكوك ما يجيب به الباحث عن هذا السؤال، لكن القيسي في" حديقته السرية " وهي أشبه ما تكون بسيرة، اتخذت من القالب الروائي شكلاً فنيًا تتكون من خلاله ، وترى الحياة برؤاه، لا يترك المجالَ واسعًاً أمام هذه الوساوس؛ ففي إحدى الفقرات المهمة من مخطوط لم يذكر اسمه، يقول، وهو يتحدث عن بطلة القصة التي التي أحبَّها، وعاشرها معاشرَة الأزواج، مثلما يصرّح في روايته- السيرة : " فجأةً ، ظهرتُ أمامي من الزقاق، غير بعيد، ظهورًا غير متوقَّع، ولوّحتْ لي كي أتبعها، ترددتُ، وهي تنْثني مسْرعةً دون توقّف، ولمْ تدَعْ لي أنْ استمْهلها،

---

(1) محمد القيسي : **الحديقة السرية** ، دار الآداب، بيروت، ط1، 2002 ص 188 ويذكر أن رواية إنجليزية صدرت في لندن بالعنوان نفسه الحديقة السرية *The Secret Garden* لبرنت *Brunett* 1911 وهي من روايات الأطفال، وليس بيْن الروايتين من الشبه ما يستحق الذكر.

(2) المصدر السابق ص 193

أو أشير إليها موضحًا. نظرتُ لا إراديا إلى جهة الصافية .. وكانتْ أمّي تغيبُ في التلافيف".

وهذا يذكرنا بطبيعة الحال بكابوس كان يعتاد جبرا إبراهيم جبرا في أحَد كتبه، وهو تجاذب امرأتين للشخْص نفسه، ولكنّ الفرق بين كابوس القيسي وجبرا أنَّ المرأتين اللتين تتجاذبانِه هما: الأم والمحبوبة. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: أيهما لها الغلبة على الأخرى؟ في الكابوس يقرِّر البطل/ الراوي – الذي هو المؤلف نفسه- الانصراف عن الأم، والاتجاه نحو المرأة الأخرى: " وجدتُني أذهب إلى مكان الصافية حيث مَخْطوطتي. خطوْتُ إليها وأنا أتساءل في سري: ماذا أقول لمن أحبّ عنْ مقابلة أمي؟ " (ص207)

خلافا لموقفه في اليقظة، عندما راح يتساءل: ماذا لو أني تبعتُ أمي، وأخذتني مَعَها؟ التفسير الشعبي يشير إلى أنَّ هذا فأل سّيء، فالميّت، حين يصطحب أحدًا من دار الحياة ، معه، ويذهب به، معناه أنه يدعوه إلى الدار الآخرة، فهل تجمّل الموْتُ في هيئة أمي؟ ". وفي اعتقادنا أنَّ ظهور الأم المَيْتة للبطل في أحلامه ، ورؤاه، والمقابلة بينها وبين المعشوقة، وتفضيل الأخرى على الأم، لا يعني أنَّ البطل كفّ عن التعلق بأمه لصالح العشق الطبيعي الخالي من نزعاته الطفولية المبكرة. وإنما الذي نراه هو العكس، لأنّ المؤلف يُلحُّ إلحاحًا شديدًا على أنَّ الأم هربت منه هروبًا، تاركة له أن يحيا حياةً جديدةً يستكمل فيها الجزء الثاني من مخطوط حياتهِ، وحياتِها أيضًا. فعبارة "حياته وحياتها" عبارة تشير إلى الصافية، وتعلقه بها، وهي صورة من صور التعلق بالأمّ المتوفاة. وليس أدلّ على هذا من الاستهلال الذي قدم به للكتاب الثاني من الرواية " البوابة الأولى". ففيما كانت الطائرة – التي تقله من عمان إلى لندن تعبر أجواء المكان الذي تثوي فيه الأم " حمْدة " يتذكّر – فجْأةً – أنه نسيَ قراءةَ الفاتِحَة : " منذ سنوات، منذ عقد كامل، تمامًا ، لم يحدث أن نسيت مثل هذه المرة، اعتدتُ،ما دمت مقيمًا، ولست في سفرٍ، أن أتلوَ آية في مشواري النهاري إلى العاصمة، وأمسح بعد كلمة آمين."

وهذه المسألة، قراءة الفاتحة، تتكرر كلما همَّ الراوي بالسفر للقاء الصافية، كذلك كلما غابت عنه تذكر غيبة الأم في دار البقاء، يقول مُخاطبًا نفسه :" لا أحدَ معك ، لا شالها، أو حقيبة يدها، لا الجميلون مروا، ولا أمُّكَ مُصْغية ."[1] فكأنَّ الغيبة عن الحبيبة تستوجب الغيبة عن الأم، أو العكس: " ليس ثمة من يستضيفك في هذا الخلاء الواسع. كأنّ الكتابة نثرٌ معلولٌ يتغذى بأحزان شاعرٍ غائبٍ عن أمه ". أما الحضورُ، فشيءٌ آخر، إذ تلتبس الأم بالمرأة :

يحضرون جميعاً؛
يحضرُ البعيدُ، والأليفُ، والعَصِيّ
وتحضُر عيْناها،
تحْضُرُ أمّي.

لسنا في حاجةٍ إلى دليل آخر على ارتباط الأم ها هنا بالمرأة الأخرى، في رواية القيسي هذه . وليس ثمة شك في أن تعلق القيسي الأوديبي بأمِّه هو الذي فرَضَ عليه هذا التعلق الشبيه بتعلق الطفل بأمّهِ، أو بمنْ تعولُه، وترْعاه. يقول في مؤضعٍ آخروندع الريح تقولُ لنا : من الذي يعرف ما ينتظر القلب؟ وما يخبِئُ الغياب ؟ [2] ". وعندما يأزف الفراق بين الصافية، وبطل الرواية، وتعتاده الكوابيس، نجده يصف لنا هذا التعلق الشبيه بتعلق الطفل بأمّهِ، أو بمنْ تعولُه، وترْعاه. يقول في مؤضعٍ آخر:" لماذا لا أختصر فأقول منذ سقطـــت على الأرض مـــنْ شُرفـــــة أمي، وانزلقت بين يدي القابلة وصعَدَتْ صرختي الأولى، وأنا أنتظرها، أنتظر الصافية .. ربما لأمــوت بعـد قليل نقرأ

---

1 .السابق ص 233

2.السابق، ص 242

الكابوس الآتي:

" راحَ بدني يُنَمْنمني ، وعيناياَ لا تفارقان امتداد العمود في الفراغ، رغِبْتُ أن أنادي أمي لتصدَّ عني هذا الهاجس الذي يلحّ عليّ، ويدعوني لاحتضان الهاوية، ولما كانَ الصّمْتُ كثيفًا ،ولا صدى لصوتي، أو إجابة، وجدتُ نفسي أطوِّق العمود الحَجَريّ بيديّ ، وجسدي مدلىً في الفراغ . واصلت نداءَ أمي بلهفة أعمق، ثمّ ارتختْ يداياَ على العمود، ورحْتُ أهوي. وكنت وأنا أهوي أنادي أمي[1] ". فهذا الدونجوان لا يفتأ يستغيث بالأم، ويُهرع إليها عندما تجفوه امرأة، ولا يفتأ يتذكر تلك الأم كلما جمَعَته بالمرأة مجالسُ وصلٍ، ومقاماتُ عشق، ولا يفتأ يقرأ على قبْرها الفاتحة كلما همّ بلقاءٍ جديد مع تلك المرأة. حتى إنَّه ليقرأ الفاتحة مرتين، إحداهما عنه، والأخرى عنها: " أحسُّ بأننا أتينا معًا هذا المكان.. المقبرة، أنا وأنتِ، أحسُّ بك الآن في مدينة الموتى، أحس بك تُهْرعين إليّ من بعيد، من رؤوس الأشْجار التي تطوِّق المقبرة. أحسّ بكِ تمامًا كما لحظاتنا الأخيرة في لندن [2] ."

والحقّ أن رواية القيسي الحديقة السرية ليست رواية بطلة واحدة انتهى بها الأمر إلى التخلي عن الحبيب، وإتلاف الصور، والرسائل المتبادلة، أو الرغبة في الإختلاف، بل هي رواية ببَطلتيْن، إحداهما هي الأم التي لانلمح المرأة الصافية إلا ونلمحها معها بين السطور والظلال، والأخرى هي الصافية معشوقة البطل المؤلف. ومما يلفت النظر تلك المشاهد السردية الغريبة التي يتصور فيها الراوي/ البطل عودة أمه من الموت: " مشيتُ حيثُ ترقد أمي، ورحْتُ أسندها بحنوّ كما لو

1.السابق، ص 342

2.السابق، ص 357

كنتُ أسند طفلَةً عليلةً. ألاحظُ أنّ أمي أطول مما أعرف، وسامقة ببنية رمحية، لكأنّ المرضَ زاد من نحولها. لوْنُ بشرتها أكثر بياضًا، وهو غير لونها القمْحيّ الذي أحبّ. أمي تتهدلُ، وتتكسَّر، كانت أمي تموت ، وتغمض عينيها كغزالة [1]. " فنهوض الأم من قبرها، والموت مرة أخرى، تدبيرٌ عجائبي، أو غرائبي، من راوٍ يسْتَسْلمُ للكوابيس. لكنَّ الحقيقة التي نستند إليها في تبديد الشكوك حول المُعطى الأوديبي لدى القيْسي، الذي يقرّبُه من أدباء عاشوا تحت وطأة هذا المُركَّب، ما ورد في روايته - السيرة من قول صريح يشبّه فيه طفولته بطفولة رولان بارط:

" عشت طفولة، ومراهقة، جد شبيهة بطفولة رولان بارط ومراهقته، ربما لهذا أحببته. ربما لأنه قال بأن المال كان أهمّ في تكوينه من الجنْس، مُبيّنًا – ببساطة – أنه عاش طفولة ومراهقة جدّ فقيرتين. وقد حدث لنا أننا كنا لا نجد ما نأكل. وكان المشهد اليومي هو رؤية أمي وهي تعمل دون توقف".. " لقد امتلك بارط، عدا مراهقته وطفولته وشهرته، المال، لكنه كان مبذرًا كبيرًا، كما يقول. وألاحظ أنني لم أكنْ مبذرًا يومًاً، ربّما لأنني لم أمتلك الكثير لأغدو مُبَذراً. كما لمْ أشْغَفْ به جَمْعاً. كنت أجترحُ وقتي وحياتي وأسفاري بالقليل منه، القليل الكافي[2] ".

وهذا الاعترافُ لا يكفي قطُّ للمقاربة بين القيسي، ورولان بارط، وإنما يقارب أيضا بينه وبين جبران، ففي الملاحظ التي نوّهْتُ إليها، ونبهت على بعض منها، في مستهل هذا الفصل، طفولة مبكرة غاب عنها الأب غياباً مطلقاً، وأمّ لا يفتأ يراها تكابد من غير مللٍ، ولا كللٍ، لتوفِّر لهُ، ولأختيهِ، لقمَة الخبز. ومراهقة لا تخلو من

1.السابق، ص 376

2.السابق، ص 162

جفافٍ وذبولٍ ويُبْس، وَشَقاوةٍ .. كل ذلك - أو ذلك كله - يؤدي بالطبع إلى تعلقٍ، ليس بالأم حسْب، بل بالمرأة، وقد لا يتجاوز هذا التعلق بالمرأة محاولات اللاوعي للتعويض، والرمز، ليس غير. فيُكثِرُ من الكلام في شعره عنها، وعن الأم، في تغْييب للكلام عن الأب إلا بإشاراتٍ نادرةٍ لاسْتشْهاده. وذلك في ظنّي هو أحد الألغاز الكامنة في ذات القيسي انسحـــــَبَ أثرهُ على شعره، مثلما انسحب على نثره.

سؤال التجنيس

ولوْ لمْ يُشرْ ناشرُ "الحديقة السِرّية" بكلمة "روايَة" على الغلاف الأوّل، لما ظنّها القارئ أكثرَ من سيرة ذاتية، لا سيّما القارئ الذي على دراية بسيرة القيسي، وما توالى في حياته من حوادث في السنوات الأخيرة التي سبقت رحيله المباغت في أوئل شهر آب من العام 2003. فالمنظّرون لفنّ الرّواية يشترطون فيها أنْ تكون الحوادثُ التي يُبني منها الجسْمُ الأساسيُّ للسَّرْد حوادثَ مُتخيّلة، وأنْ يكون الراوي فيها شخصاً غيْر المؤلف. وأنْ تكون الشخوصُ فيها غيْرَ حقيقيّة، فهي من اختراع الكاتِبِ المُبْدع، وأنْ تجري أوضاعُها فيها وفقا لقواعد السَّرْد لا لقواعد الحياة اليوميّة غير المتخيلة. فالكاتبُ الروائيُّ يُحاولُ، ما أمْكنه، مُحاكاة الواقع لجَعْل الحوادث المتخيَّلة تبدو لقارئِهِ العاديِّ، أو المتمرّس، وكأنَّها حوادثُ حقيقيّة، وليستْ منْ صُنْع الخيال. والدلائلُ التي تشيرُ إلى اقتراب نصّ "الحديقة السرية" منَ السّيرة دلائلُ كثيرةٌ جدًّاً.

الرواية- السيرة

فالكاتبُ، متماهٍ بالراوي. والراوي، الذي هو المؤلفُ، متماهٍ بالبطل، الذي ألمحَ النصّ لاسْمِهِ مِراراً وتكرارًاً. وسأسوق هنا بَعْضَ الدلائل التي تثبتُ بالدليل الملموس

أنَّ القيسي هو من يروي، وهو منْ تدور حوله الحكاية. يقولُ المؤلفُ ما يأتي: " هذه المرّة امتدتْ المسافة أسابيع قليلة كانَ لا بدّ منها، وقد تشقق قلبي في الطريق إلى رامَ الله، لأرى البيْت الذي تركته مُنذ ثلاثين سَنة، وأتعرّف عليْه. وإذ وَصلتُ، وسعيْتُ إلى المُخيّم، رأيتُ أنَّ هذا المخيّم (يعني مخيَّم الجَلزون) ليس المخيّم الذي أعرف، هكذا تهْتُ، ولمْ أعرف الطريق إلى البيت الذي عشتُ فيه مع أمّي. رُحْت من جديد أمشي على هدْي خارطة الذاكرة، أغمِّضُ عيني وأرى المُخيَّم طفلاً. ورأيته، إذ ذاك، واضحًا تمامًا. كيف تغيَّرَ المكانُ إلى هذا الحدِّ، وغابَتْ معالمُ بيْتي؟ لا الشارع نفسُه، ولا دكانُ أبي طلال هناك، ولا شجراتُ الزيتون أيضًا، ولا بيْت الخلاء في العراء المُظلَّل بأشْجار اللوز والبرْقوق.لا شيءَ ممّا كان هنا قبْل ثلاثينَ سَنةٍ باقيًا مني.هكذا تتعقّد الجغرافيا الأولى لذاكرة الطفولة. إنه الجلزون. . مخيم الجلزون [1] ".وأيًا كان الدارسُ الذي يُريدُ أنْ ينفيَ صحّة ما نزعمُه من أنَّ الراوي هنا مُنْدغمٌ في المؤلف، والبطل، على حدّ سواء، فإنه لا يستطيع أنْ يُنكرَ صحّة أنّ القيسي هو ابن مخيم الجلزون، وقد أوضح ذلك، وفصَّله، وجلاهُ في غير كتاب من كتبه النثرية التي تطرَّقَ فيها إلى السيرة، والطرْد من المكان، ومنها "كتابُ الابْن" الذي أشار إليه صراحة في "**الحديقة السرية**" رابطًا بيْن مشروع الكتاب، وبعض الحوادث التي رُويَتْ في السّيرة التي نتحدّثُ عنها في هذا الفصل.

والواقعُ أنَّ القيْسي لا ينفي عن كتابهِ هذا صفة السّيرة، بدليل أنه يذكر فيه بَعْض شعره، وبعض أسْفاره، وما كانَ من شأن الأمّ التي تُوفِّيَت قبل بدء الحوادث في

1.السابق، ص 298

الرواية بعشرْ من السَنوات، وهو يذكر اسْم ابنته البكر (بيسان). فوق هذا يذكر المكانَ الذي يقيم فيه،وبيته السابق في الرُّصَيْفة. ويذكر عناوين الكتُب التي قرأها، أو اطّلع عليها في أثناء تدوينه لهذا النَّص، ومنها - على سبيل التمثيل لا الحصر- كتاب"الرَمْل" لبورخس ، و"علاقات خطرة" وهي رواية تراسليّة من تأليف الفرنس دي لاجلو، أهدته ترجمتها بطلة الرواية (الصافية) و(اللهبُ المزدوج)[1] لأكتافيو باث، ويذكر قصيدة لشاعر إشبيلي أعْجَبَ بها ذاتَ يوم. ويذكر رواية "تحْت الدولاب" لهرمان هسه، فيُحدّث القارئ بملخَّص تلك الرواية، وما كان منْ شأن بطلها (هانز غيبنراث) مثلما يوردُ مقتطفاتٌ منْ "نشيد الإنشاد" منبّهاً على الصلة بين عنوان كتابه والحدائق السرية المرتبطة بإيروس[1] .

وفي مَوْضع آخرَ يحدّث القارئ بحديث جان جينيه الذي نزل ذاتَ يوْم في فندق بالرباط يقال له" النُزْل الملكي". إلى ذلك يشير لقصائدَ كتبها، فكانت مُؤرّقة له، وإلى آراء لكلٍّ من رولان بارط، وجوليا كرستيفا ويطالع كتاباً عن حياة نازك الملائكة، مؤكداً أنه لم يُعْجب بالروح المتحفِّظة لديها، وهي رائدة الشعر الحديث، مثلما يقولون(ص158). وعن الرواية السُّودانية "بيضة النعامة" يقول القيسي:" فرغْتُ من قراءة "بيضة النعامة" التي قدّمْتِها لي، ودعوْتني لقراءتها بالسُّرْعة المُمْكنة، أعجبتني كعّملْ -كذا - فنّي شديـــدِ الحساسية، ومملوء بالسودان - البطلة سودانية - ونكهته التي تحمل، مثلما يقولون، عبيرَ الغابة" (ص195) وهو دائم الذكر لكتبه، فسرعان ما يستل منها واحدًا ويشرع في قراءته، من ذلك - مثلا - قصة "الشيخ والبحر" للكاتب الأميركي همنجوي التي يقول عنها القيسي:" هي الرواية التي أحبُّ

1.السابق، ص 60

". ونستطيع أنْ نقول مثلَ هذا عن جلال الدين الرومي، وعن كافكا، وبهاء طاهر، وإتيل عدنان. ومثل هذا الانثيال من الكُتُبً، والنصوص، التي يُشير إليها القيسي، يضعنا وجْهاً لوجهْ أما سيرة، أو اعترافاتْ، يكتبها شاعرّ عاشَقٌ، وكاتبّ مثقفٌ، وقارئٌ نهِمٌ منَ الدَّرجة الأولى.

فالرواية لا تحْتملُ مثل هذا التوثيق القائم على تتبّع حياة المؤلف الراوي. ويَسْتطيع منْ ينظر في نماذج من الرواية العالمية، أو العربيَّة، أنْ يكتشفَ بسهولة، ويُسْر، شديديْن، خلوّ الأعمال الروائية من مثل هذا السَّيال الثقافيّ، لأنَّ الرواية يُفترضُ فيها أنْ تخاطب القارئ العادي الذي لا يعرف من هو بورخيس، أو بارط، أو جوليا كرستيفا، أو إتيل عدنان، أو جلال الدين الرومي. من هنا يأتي القولُ باقتراب هذا النصّ من كتب السيرة الذاتية، والاعْترافات، وربما كان هذا الوصفُ أقرَبَ إلى الدقّة منْ وصفنا لحديقة القيسي السرية بالرواية، وثمة وصفٌ آخر لهذه الرواية يمكن أخذهُ بالحسْبان، وهو الرحلة.

الرواية- الرحلة

فمن يقرأْ الحديقة السرية يكتشفْ حرْصَ المؤلف، الذي هو الراوي دائمًا، والبطل، على تضمين النصّ انطباعاتٍ عن الأماكن، فيما يُشبهُ الارتحالَ الذي يذكرُنا برواية أمين معلوف عن الحسن الوزان (ليون الأفريقي) وبكتب الرحلاتِ الكثيرة التي صُنفت في القديم، والحديث، وقد بدأ هذا النزوع في أسلوب الكاتب معَ الأسْطر الأولى، فقد التقى البطلُ العاشقُ فتاته في رحلةْ قامَ بها إلى بغداد ليحضرَ مُؤْتمرًا . وقد تكرَرتْ الإشارة إلى هذا اللقاء فيما يشبه التواترُ السَّرْدي، ولكنَّ الساردَ لمْ يتركْ فرْصَة تفلِتُ منْ يده إلا ودوَّن فيها ما جرى في رحلاته من بغدادَ إلى عمّانَ، فالمغرب: فاس، والرباط، وسلا، وشالة، والدار البيضاء، وطنجة، وغيرها، فإلى

تونس، ثم لندن، فالإقامة فيها تحت ستار العمل في مركز إعلامي ليكون إلى جانب المرأة التي عَشِقَ. ثم الرحلاتُ من لندن إلى تونس، فعمّان، ورحلات (الصافية) إلى أميركا، فالجنوب الأفريقي، والدوحة، فتونس.

ومَظهرُ الأدب الوَصْفي (الرحلات) يُخيّم - في الواقع- على السرد من أول النص حتى الكلمات الأخيرة. لكن القارئ المُرْتاب بما نقول يسْتطيع أنْ يتصفّح على عَجَلٍ الصفحات من 101 - 157 ليكتشفَ ما فيها من تسجيل وثائقيّ لانطباعاتِ الكاتِب عن الأماكن التي تردّد إليها، وزارها، متمتّعًا بما فيها من المشاهد، والمغاني، التي تذكرهُ بشِعْبِ بوّان. وقد استحالتْ عناوينُ الفصول، بفضل ذلك، إلى أسْماء أماكن: "الحج إلى فاس" و" فاس- 1 نيسان"و "فاس- 2 نيسان" و "فاس- الرباط4 نيسان"و"الرباط - 5 نيسان"و" الرباط 6 نيسان" و" الدار البيضاء7 نيسان"ثم"لندن 12 نيسان" وأخيرا غارديني البحر. والعناوين لا تمثل في الواقع دالا وحيدًا، ولا ذِكْرهُ لليوم والشهر إلى جانب اسم المكان هو وحده ما يوحي لنا بأنَّ الكتابَ لا يتعدى أنْ يكون مذكِّرات، وإنما السردُ نفسُه يحيلنا، في بعض المواقع، إلى ما يشبه الكتُب التي تحسبُ في عداد الكُتُب السياحية. فهذا سرْدّ تمّ اختياره بطريقة عشوائية لنقرأ فيه ما يأتي:

"نتجول في الرباط قاصدين شالّة، نمرُّ بمقهى بليمة ثم نأخذ العربة، ندفع ثمن تذكرتين وندخل بوابة شالة العالية الفخيمة، ساعاتٌ من التجوال، والحديث المتواصل بين أشجار خرافية، وخضرة مُلتهبة الألوان، وقبور لأسلافٍ لا نعرف، وغزاة سادوا ثم بادوا، لنفضي إلى جلسة على العشب مطوّقين بالأشجار التي تحنو علينا حيث يَصلنا عزْفُ الطيور، لكأنّ الطبيعة بجمالها كله تحتفي بنا. ثم يمرُّ فوْج كبيرٌ من السائحين الأجانب، رجالا ونساءً في منتصف العُمْر، أو كهولته، يندهشون لجلستنا

بيْن الأعشاب." وفي كثير من المواقف نجدُ المؤلفَ- الذي هو البطلُ والرّاوي- يفتّشُ في الأماكن عن ذكرياتٍ، ففي أثناء تجواله في مدينة (سَلا) يتذكرُ موشَّحاً للسان الدين بن الخطيب، فيورده[1] . وهو يفعلُ ذلك في أثناء تردُّده إلى لندن وتونس: فأسماء الشوارع، والمطاراتِ، والأحياء، والأسواق، محفورةٌ في ذاكرته، لذا لا نعْجب إذا وجدناه يُشيرُ لكتاب جبرا "شارع الأميرات" الذي دوَّن فيه انطباعاتَه عن لندن، وعن مناطقَ أخرى كثيرةٌ في إنجلترا، لا سيّما منطقة البُحيْرات.

الرواية – القصيدة

في كتابيه "الحساسية الجديدة" و "أصوات الحداثة" استخدم إدوار الخرّاط تعبيرًا جديدًا يشيرُ فيه إلى اختلاط الأنواع الأدَبيّة في أعْمالْ مُعيّنة بالذات، وهو القصة – القصيدة ، لكنه لم يستخدم، فيما أظنُّ، وأحْسَبُ، مصطلح الرواية القصيدة، أو السيرة القصيدة. ونحنُ هنا نقتربُ من تعبيره ذاك، لكننا نعمّمُه على نوْع آخرَ هوَ السيرة المُرْتبَكة بيْن الشِّعْر والنثر، أو بيْن الرحلة والرواية أو بيْن الرواية والسيرة الذاتية. ومن الواضح أنَّ القارئ لنْ يفوته أنْ يُدرك ما في "الحديقة السَّرية من أسلوب شعريّ يَطغى فيها الشعر على النثر.

غيْر أنَّ ما ينبغي لفتُ الانتباه إليه، هو أنَّ هذا النصَّ لا نسْمعُ فيه سوى صَوْتِ المؤلّف، متماهياً بصوْت الراوي، المندغم بالبطل، في الوقتِ نفْسِه، بلا مُواربةٍ، أو تمْويه. وهذا يَعْني أنَّ المتكلمَ هوَ المؤلفُ، وأنَّ النص يدورُ حوْلَ المتكلم المُتمرْكز حوْل أناه. وبما أنَّ الشِّعْر الغنائيَّ، وحدهُ، خلافًا للملحميّ، والقصصيّ، والتمثيلي، هو الذي

2.نفسه، ص 115

يتمَرْكزُ فيه المتكلم حوْل ذاته: فإنَّ نصَّ الحديقة السَّرّية، بما هو واضحٌ من الصوت الوحيد الذي يخاطب فيه المؤلف ذاته، أقربُ إلى الشعر الغنائي منه إلى السَّرْد القصصيّ، الذي ينبغي أنْ يكونَ مستقلا عنْ صاحبه. والمعروفُ أنّ الأسلوبَ الشعْريَّ يتَّسِمُ- إلى جانب الاستخدام الخاص للغة، بتكثيف المجاز، والاستعارة، والاستكثار من المُحسِّنات- ويقومُ أيضًا على ما يأتي:

1. عدم التقيُّد بالترتيب المعياري لعناصر الجملة، فيلجأ الشاعر للتقديم، والتأخير، والتكرير، والحذف، على وَفْق ما يتطلبه الإحساس، والشعور. فإذا كان الناثر يقول: (أنا آتْ إلى ظلّ عينيك) فإن الشاعر يقول (إلى ظلّ عينيكِ آتٍ) فالعبارة الثانية يغلب عليها الترتيب الشعريُّ، فيما يلوحُ على الأولى الترتيبُ النثريّ.

2. والأسلوبُ الشعريُّ يتسم بتوافر الجرس الصوتي، والإيقاع في الكلام، والسلاسة، وحتى الوزن .

3. ويغلب على الأسلوب الشعريّ التعبيرُ بالصُوَر تجنبًا للوقوع في المباشرة.

4. ويغلبُ عليه، أيضًا، الإيحاءُ، والرمْز.

وبالنسبة للمعايير التي تميِّزُ الأسلوب الشعريّ من النثري في هذا النصّ يسْتطيعُ القارئ أنْ يجد الأمثلة، والشواهد الكثيرة، التي تمّ على ذلك، ليس في كلّ صفحة من هذا الكتاب، بل في كل فقرة إذا أراد البحث، والتَنْقيب. ففي اختيار عشوائي نقرأ " ها هي ذي تفكك كرة الخيوط المتشابكة داخلي، خيطا خيطاً، وتفردها أمامي، تذيبُ ما تجمّد فيَّ من ينابيعَ، وأطوار، فأتطايرُ أنا فراشاً في أجواء المَكان". وفي الصفحة التي تليها يكتبُ القيسي واصفا قراءَة إحدى قصائده أمام المرأة التي يقعُ في حبّها تلكَ اللحظة :" أتوغَّل في الكلماتَ، وأراني فيها، لكأنّي اقرأ في سيرة الوَجع الطويل، في هذا الوقت بالذات لماذا يتهدّج صَوْتي، وتبتلُّ الأهدابُ، وما طفرَ

الدّمْع؟". وها هو ذا يصف في فقرة قصيرة لقاء الحبيبيْن بلغة مليئة بالانزياحات تقرّب النثرَ من لغة الشعر: " أراها الآن أمامي ترتدي قميص نوم حريريًا طويلا بحريّ اللون، وعشبيًا قليلا، تطرّزه الأزهارُ وأوراقُ الورد..تواطأتُ مع الصمت.. وانطبق الباب. حضنتها طويلا قبل أنْ أصلَ إلى الأريكة.. وتحضنني. فعلنا ذلك في ظمَإْ صَحْراويّ. لكأنّنا من سنواتٍ كنّا ندّخر هذا الكنْز. كنْز الأحاسيس التي لا حدّ لفيضانها الآن[1] ".

ومن البيّن، الواضح، أنّ الكاتب القيْسي يلجأ بكثرة للصورة والمجاز: كنز الأحاسيس،سيرة الوجع الطويل. كرة الخيوط المتشابكة داخلي، إلخ..

علاوة على ذلك نجده ينحو في مَنْحاهُ الكتابي منحى الشاعر في اللّعب بأوضاع الكلمات في الجملة الواحدة " أراني فيها اقرأ سيرة الوَجَع" و"طويلا دارَ بنا السائقُ". ويقول في موقع آخر: " أية خِفةٍ حمَلتْني على أجنحة هذه العتمة قبل العودة إلى الطاولة، لم تكن بالأمَدِ القصير، كانتْ مدىً شاسعًا، وشاشة ناصِعَة البياض، رأيت فيها الصّبْح مكتوباً. وأعراسَ قلبي تظللُ الليلَ والجُدران[2] " فالأصلُ أنْ يكون الترتيب: " قبل العودة إلى الطاولة حملتني خفة على أجنحة العتمة " لكنَّ المؤلف، كما لو أنه يكتب شعرًا، اختار أنْ يبدأ بالسؤال، وأنْ يُقدِّم ويؤخرَ، لما فيذلك من مراعاةٍ للسلاسة، والإيقاع، فضلا عن الترتيب النفسي لاهتماماته في تلك اللحظة. إلى ذلك نعثرُ في الكتاب على المزيد من التكرار في الكلمة، والعبارة، والمؤْقف، ممّا يُضفي على اللغة الطابَعَ الموسيقيَّ الذي يَتضافرُ مع العبارة السلسة

1.السابق نفسه، ص 33، وص 34

2.السابق، ص 59

القصيرة، المنحوتة ببراعة قلّ نظيرُها في النَثْر.

والسّؤال الذي يتبادرُ للذهن، هو: هلْ أفاد السَّردُ القصصيُّ من هذه الشعريّة في نثره؟ لا بُدّ من التذكير بشيء يتناساهُ كثيرون ممن يكتبون عن الرواية، وهو أنَّ اللغة في الرواية ينبغي أن تتَّصِفَ بالتنوّع، فوفقاً لميخائيل باختين يجبُ أنْ تتراءى فيها الأطيافُ اللغوية السائدة بين أناسِ الحِكاية، ولا يمثل التجانسُ اللغويُّ إلا شيئا واحدًاً هو غَلَبَة صوْت المؤلف على الأصوات الأخرى، وذلك يتنافي معَ المبدأ الذي دعا إليه، والتزمه فلوبير، وهو ضرورة تغيّب الكاتب عن الرواية. أما "الحديقة السرية" فلا شخوصَ فيها بالمَعْنى الدقيق للكلمة،والحوادث فيها تفتقرُ للتنوّع، والسَّيْروة، فالراوي- الذي هو القيْسي نفسُه- لا يُراوح إلا بيْن اللقاء الذي يَضمُّ العاشقيْن تارة، أو الفراق الذي يُباعدُ بينهما قليلا، ليعودا فيلتقيا تارة أخرى، أو يهجر السرد الزمني لسرْد من نوعٍ آخرَ كالرَّسائل أو الحوار بوساطة الهاتف. وهذا كله - بلا ريب - قلّل من تمَسُّك النصّ بقواعد السَّرْد، وقرّبه على نحو واضِحٍ من السّيرة الذاتية، ومن القصيدة النثريَّة التي تروي بالتفصيل حكاية عشْق عابرة، ربطتْ بيْن اثنين، ثم توقفتْ تلك الحكاية دون أنْ يترتب عليها ما يرجوه القارئ من تغْييرٍ يُفصحُ عن قيام السّارد بحبك الحوادث حبكاً يؤدي إلى نهاية .

لذا، إذا كان لا بُدَّ من الجواب عن سؤال التجنيس في هذا النص الموسوم بالحديقة السرية، فإنّنا نرجّحُ نسبته إلى النصوص التي وصفها جنيت بكلمة "النصّ الجامع" ففيه شيءٌ منَ الرواية، وشيءٌ من السِّيرة، وشيءٌ منْ أدبِ الرّحلات، وشيءٌ غيرُ قليلْ من الشعْر، وشيءٌ من الرسائل، فضلا عن الاعترافات، وذلك ممّا يُسوّغ الزّعم بأنّ هذا النص نصّ استثنائيّ، يتخطى قواعد التصنيف، وَيَتأبَّى على التجْنيس.

الخاتمة

اعتاد الكتابُ، والدارسون، والباحثون، على إنهاء ما يؤلفون، وينشرون، بخاتمة تلخِّص أبرزَ ما في الكتاب. والحق أنَّ هذا الكتاب لا يحتاج في نظري لذلك؛ لأنه يضمُّ، بين دفتيه، دراساتٍ، وبحوثًا، تتناول موضوعاتٍ متعددة من شعر القيسي؛ فهو يقف بنا عند مشاعر الحزن والشَجى، والغربة والمنفى، ويقفنا عند موضوع الموْت في شعره، والمكان، لا سيما متصوَّرهُ عن البيْت، وموضوع التناصّ، والتفاعل مع التراث القديم، والتراث الشعبي، وما يحيط بذلكَ من أدَبٍ تأثر به، وتجلى تأثيرهُ في شِعْره، ويمضي بنا في الاتجاه نفسه عندما يتناول تأثير لوركا الإسباني في بعض أشْعاره، علاوة على هذا كله، يتناول موقف الشاعر القيسي من التجْنيس شِعْرًا، ونَثرًا، وبصفةٍ خاصَّةٍ علاقة روايته " الحديقة السرّيّة " بالسيرة.

وهذه موْضوعاتٌ متعدِّدة، تنْتَظِمُها الدلائل المُؤَكِّدَةُ أن القيسي شاعرٌ كبيرٌ، ملتزمٌ بهموم شعبه الفلسطيني، التزامًا قلَّ نظيرُه، وسَما قدْرُهُ وتقديرُه، وهو ملتزمٌ كذلك بقضية الشِعْر، من حيث هو فنّ، فلم يغِبْ عن فكرِهِ، ولم يَعْزُب عن خاطِرِهِ، أنَّ الالتزام السياسيّ، والوطني، والقوْمي، لا يعني التفريطَ بشعريَّة النصّ، وجماليّات القصيدة، أو شعريَّة الروايَة، وجماليّات السَرْد.

رحم الله القيسي رَحْمَة دائمة، وغَفَرَ لهُ، وَعَفا عنه، فقد كانَ، بحقٍّ، غرّيدَ الحُزْن المَوْزون.

مصادر الكتاب ومراجعه

إبراهيم خليل: محمد القيسي الشاعر والنص، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1998

نفسه: تأملات في السرد العربي، ط1، دار فضاءات للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، 2010

إبراهيم نصرالله: شرفة رجل الثلج، ط1، الدار العربية للعلوم (ناشرون) بيروت، 2009

أحمد دحبور: محمد القيسي غريد الحزن الموزون، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، ع 77 س 1977

أحمد سويد (مترجم): الإسكافية العجيبة، ط1، دار المعارف ، بيروت، 1961، وط2 (1981)

أحمد عبد العزيز: تأثير لوركا في الأدب العربي المعاصر، فصول، القاهرة، ع4، مج 3، 1983

أحمد عبد المعطي حجازي: مدينة بلا قلب، ط2، دار الكتاب العربي،القاهرة، 1968

بدر شاكر السياب: شناشيل ابنة الجلبي، ط3، دار الطليعة، بيروت، 1967

نفسه: ديوان بدر شاكر السياب، ط1، دار العودة، بيروت، 1971

جوليا كرستيفا: علم النص، ترجمة فؤاد زاهي، ط1، طوبقال للنشر، الدار البيضاء، 1991

خالدة سعيد: حركية الإبداع في الأدب العربي الحديث، ط1، دار العودة، بيروت، 1979

خليل الشيخ: النص التراثي في رسالتين لجمال الغيطاني، أبحاث اليرموك، مج8، ع 1، س 1990
خليل الموسى: التناص والأجناسية في الشعر، الموقف الأدبي، دمشق، ع305، س 1996
رشيد يحياوي: مقدمات في نظرية الأنواع الأدبية، ط2، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1994
سعدي يوسف (مترجم): الأغاني وما بعدها، ط1، دار الفارابي، بيروت، 1981
الشابي، أبو القاسم: ديوان أبي القاسم الشابي، ط2، دار الأرقم، بيروت، 1997
صلاح عبد الصبور: فردريكو غارثيا لوركا وقصائد من شعره، ط1، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1967
عبد السلام المسدي: الأسلوب والأسلوبية، ط1، الدار العربية للكتاب، طرابلس؛ وتونس، 1977
عبد السلام المصباح (مترجم): مختارات من ديوان تماريت ، نزوى، مسقط، ع 15، س4، 1998
عبد القادر عياشي: الغناء الشعبي في وادي الفرات، ط1، د.ن، دمشق، 1983
عدنان بغجاتي: مختارات من شعر لوركا، ط2، دار المسيرة، بيروت، 1983
عنترة بن شداد: ديوان عنترة، دار المعرفة، بيروت، بلا تاريخ.
غاستون باشلار: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، ط4، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1996
فاطمة البريكي: التناصّ في النقد القديم، ر.ج، الجامعة الأردنية، عمان، 2003 غير منشورة.
فان تيغم: الأدب المقارن، ترجمة سامي الدروبي، دار الفكر، بلا تاريخ.

فتحية عبدالله: إشكالية تصنيف الأنواع الأدبية، عالم الفكر، الكويت، ع1، مج 33، سبتمبر 2004
القاسم، سميح:الأعمال الشعرية الكاملة، ط1، دار الجيل، بيروت، 1992
القرشي، أبو زيد (محمد بن أبي الخطاب): جمهرة أشعار العرب(جزءان) تحقيق محمد علي الهاشمي، ط2، دار القلم ، دمشق، 1986
كاظم جواد وسلافة حجاوي: لوركا قيثارة غرناطة، ط1، مطبعة المعارف، بغداد، 1957
كامب، جان: الأدب الإسباني، ترجمة بهيج شعبان، ط1، دار بيروت للطباعة والنشر، 1956
كينيث ياسودا: واحدة بعد أخرى- دراسة في جماليات قصيدة الهايكو اليابانية، ترجمة محمد الأسعد، ط1، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1999
لوركا، فريدريكو غارثيا: عرس الدم، ط2، ترجمة علي سعد، دار المعجم العربي، بيروت، 1979
محمد إبراهيم لافي: لم يعد درج العمر أخضر، ط1، وزارة الثقافة، عمان، 2005
نفسه: ويقول الرصيف، ط1، وزارة الثقافة، عمان، 2010
محمد جاسم: التناص؛ المفهوم والآفاق، الآداب، بيروت، ع 97، تموز – يوليو 1990
محمد العامري: المغني الجوّال، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2001
محمد القيسي: الأعمال الشعرية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987
نفسه: كتاب حمدة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1989
نفسه: الموقد واللهب، ط1، وزارة الثقافة، عمان، 1994
نفسه: ذاهب لأرى وجهي، ط1، دار الآداب، بيروت، 1995

تفسه: ناي على أيامنا، ط1، دار الآداب، بيروت، 1996
نفسه: ثلاثية حمدة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1997
نفسه: الأعمال الشعرية (3 أجزاء) ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1999
نفسه: منمنمات أليسا، الهيئة العليا لعمان عاصمة الثقافة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2002
نفسه: الحديقة السرية، ط1، دار الآداب، بيروت، 2002
نفسه: شرفة في قفص، ط1، دار الآداب، بيروت، 2004
محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، ط1، دار التنوير، بيروت ؛ والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1985
محمود درويش: لماذا تركت الحصان وحيدا؟، ط2، رياض الريس للنشر، بيروت، 1996
محمود صبح: مختارات من الشعر الإسباني المعاصر، ط2، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986
مريد البرغوثي: الأعمال الشعرية الكاملة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1997
نفسه: الناس في ليلهم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1999
معين بسيسو: الأعمال الشعرية الكاملة، ط2، دار العودة، بيروت، 1982.
ناديا ظافر شعبان (مترجمة): مختارات من لوركا، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والترجمة والنشر، بيروت، 1981، وط2 (1983)
نازك الملائكة: قضايا الشعر العربي المعاصر، ط3، مكتبة النهضة، بيروت، 1967

نوال بنت ناصر بن محمد السويلم: تداخل الأجناس الأدبية في نص الحديقة السرية لمحمد القيسي، المجلة الأردنية للغة العربية وآدابها، مؤتة، ع 2، مج 9، س 2013.
يوسف عبد العزيز: حوار مع محمد القيسي، مجلة عمان، ع 96، سنة 2004 .
The Selected Poems of Federico G. Lorca, edited by Francisco. G. Lorca. And Donald. M. Allen, New York, 23. Ed The Secret

للمؤلف

الشعر المعاصر في الأردن، ط1، عمان: عمال المطابع التعاونية، 1975
في الأدب والنقد، ط1، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ورابطة الكتاب الأردنيين، 1980
من يذكر البحر،(قصص) ط1، عمان: رابطة الكتاب الأردنيين، 1982 – ط2، عمان، دار الخليج، 2026
تداعيات ابن زريق البغدادي الأخيرة، (شعر) ط1، عمان: مطبعة شوقي معبدي، 1984
في القصة والرواية الفلسطينية، ط1، عمان: دار ابن رشد للنشر والتوزيع، 1984
مقالات ضد البنيوية، ترجمة- ط1، عمان: دار الكرمل للنشر والتوزيع، 1986
تجديد الشعر العربي، ط1، عمان: دار الكرمل للنشر والتوزيع، 1987
الانتفاضة الفلسطينية في الأدب العربي، ط1، عمان: دار الكرمل للنشر والتوزيع، 1990
فصول في الأدب الأردني ونقده، ط1، عمان: وزارة الثقافة، 1991
أوراق في اللغة والنقد الأدبي، ط1، دار الينابيع للنشر، عمان، 1993
أحاديث في الشعر الأردني والفلسطيني الحديث، ط1، عمان: دار الينابيع، 1993
غبار وأقنعة لمحمود سيف الدين الإيراني(تحقيق) ط1، عمان: دار الكرمل بدعم من مؤسسة عبد الحميد شومان، 1993
الرواية في الأردن في ربع قرن 1968- 1993، ط1، عمان: وزارة الثقافة، 1994
القصة القصيرة وبحوث أخرى، ط1،عمان: رابطة الكتاب الأردنيين، ودار الكرمل للنشر والتوزيع، 1994
فخري قعوار دراسة في فنه القصصي، ط1، عمان: دار الكرمل للنشر والتوزيع، 1995

النص الأدبي تحليله وبناؤه، ط1، عمان: دار الكرمل للنشر والتوزيع، 1995
الأسلوبية ونظرية النص، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1997
أمين شنار الشاعر والأفق، ط1، عمان: صحيفة الدستور والاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، 1997
محمد القيسي الشاعر والنص، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1998
مهارات الاتصال(مشترك) ط1، عمان: مطبعة الجامعة الأردنية، 1999
تحولات النص، ط1، عمان: وزارة الثقافة، 1999
الضفيرة واللهب (دراسات في الشعر العربي القديم والمعاصر) ط1، عمان: الدائرة الثقافية بأمانة عمان، 2000
ظلال واصداء أندلسية في الأدب المعاصر، ط1، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2000
جبرا إبراهيم جبرا الأديب الناقد، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2001
أقنعة الراوي، ط1، عمان: وزارة الثقافة، 2002
في النقد والنقد الألسني، ط1، عمان: الدائرة الثقافية في أمانة عمان؛ ودار الكندي، 2002
مقدمات لدراسة الحياة الأدبية في الأردن، ط1، عمان: دار الجوهرة للنشر والتوزيع، 2003
مدخل إلى دراسة الشعر العربي الحديث، ط1، عمان: دار المسيرة، 2003
في اللسانيات ونحو النص، ط1، عمان: دار المسيرة، 2003
نقاد الأدب في الأردن وفلسطين، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2003

فصول في نقد النقد، ط1، عمان: وزارة الثقافة، 2005
تيسير سبول من الشعر إلى الرواية، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005
من معالم الشعر الحديث في الأردن وفلسطين، ط1، عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2006
شعراء تحت المجهر، ط1، عمان: ورد الأردنية للنشر والتوزيع، 2006
في دائرة الضوء- تراجم وشخصيات، ط1، عمان، الدائرة الثقافية، 2007
فن الكتابة والتعبير(مشترك)، ط1، عمان: دار المسيرة، 2007
في الرواية النسوية العربية، ط1، ورد للنشر والتوزيع، عمان، 2007
مقاربات في نظرية الأدب ونظرية اللغة، ط1، عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2007
عروض الشعر العربي، ط1، عمان: دار المسيرة، 2007
بنية النص الروائي من المؤلف إلى القارئ، ط1، عمان، عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، 2008 ط2 الدار العربية للعلوم (ناشرون) 2010
من الاحتمال إلى الضرورة، ط1، عمان: مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2008
في السرد والسرد النسوي، ط1، عمان: وزارة الثقافة، 2008
من الشعر الحديث والمعاصر(أعلام وشخصيات)، ط1، عمان: دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، 2009
المثاقفة والمنهج في النقد الأدبي، ط1، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2010
مدخل إلى علم اللغة، ط1، عمان: دار المسيرة، 2010
في نظرية الأدب وعلم النص، ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم (ناشرون) ودار الإئتلاف، الجزائر2010
شعرية القصة القصيرة وحوار الأجناس، ط1، عمان: وزارة الثقافة، 2010

من أدب البلدان في القدس وعمان، ط1، عمان: الدائرة الثقافية – الأمانة، 2010
تأملات في السرد العربي، ط1، عمان: دار فضاءات للنشر والتوزيع، 2010
محمود درويش قيثارة فلسطين، ط1، عمان: دار فضاءات للنشر والتوزيع، 2011
ط2، 2023
الصوت المنفرد (من القارئ إلى النص ومن النص إلى القارئ)، ط1، عمان: أمواج للنشر والتوزيع، 2011
أوراق لسانية ونقدية معاصرة، ط1، عمان: مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2012
الرواية، التاريخ، السيرة، ط1، عمان: دار أمواج للنشر والتوزيع، 2012
واقع الدراسات النقدية العربية في مائة عام، ط1، عمان: عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، 2013 ط2، عمان: دار الخليج، 2024
قضايا لغوية معاصرة بين النظرية والتطبيق، ط1، عمان: مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2013
مقدمة في علم أصوات اللغة العربية، ط1، عمان: أمواج للنشر والتوزيع، 2013 ، ط2، عمان: دار الخليج، 2022
راهن الدراسات النقدية في الوطن العربي، ط1، الرياض، كرسي عبد العزيز المانع للدراسات اللغوية والأدبية– جامعة الملك سعود، 2013
الأسلوبية العربية – مدخل إجرائي، ط1، عمان: دار جهينة للنشر والتوزيع، 2014
نحو النص بين النظرية والتطبيق، دار أمواج للنشر والتوزيع، عمان: 2014
بحوث وأوراق في أدب الأردن وفلسطين، فضاءات للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2014
أساسيات الرواية، ط1، عمان: فضاءات للنشر والتوزيع، 2015
بلاغة الرواية ومسارات القراءة، فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2015

حاضر الشعر وتحولات القصيدة- نحو قراءة جديدة للشعر العربي الحديث، دار الآن (ناشرون وموزعون) عمان، ط1، 2016
مراوغة السرد وتحوُّلات المعنى، فصول في القصة القصيرة، الآن- ناشرون وموزعون، ط1، عمان، 2016
جولات حرة في مرويات ليلى الأطرش من 1988- 2014، الآن- ناشرون وموزعون، عمان، ط1، 2017
ناصر الدين الأسد وآثاره في اللغة والأدب، أمواج للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017
جمال أبو حمدان 1970- 2015، ورد الأردنية للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017
محمود الريماوي من القصة إلى الرواية، دار فضاءات للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2018
اجتهادات نقدية في الشعر والقصة والرواية، الألفية للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2018
الناقد وعالمه (دراسات مختارة) - إحسان عباس، جبرا إبراهيم جبرا، يوسف اليوسف.ط1، أمواج للطباعة والنشر والتوزيع،عمان 2018
القابض على الجمر، حميد سعيد - فصول في شعره وفي ما كتب عنه، ط1، هبة للنشر، عمان، 2018
محمد القيسي قيثارة المنفى وتباريح الشجن، أمواج للطباعة والنشر، 2018.
علي جعفر العلاق، شعرية الحداثة وحداثة الشعر، ط1، عمان، هبة للنشر، 2018
محمود السمرة والنقد الأدبي، ط1، هبة للنشر، عمان، 2019
الذاكرة والمتخيل في الخطاب السردي، ط1، عمان: دار أمواج للنشر، 2019
بين الرواية والسيرة، ط1، عمان: دار أمواج للطباعة والنشر، 2020
في البلاغة الجديدة وقضايا أخرى، دار أسامة ودار النبلاء للنشر، عمان، 2021

شاعران من فلسطين: البرغوثي وعز الدين، ط1، عمان: دار الخليج 2021
السرد ومظاهره في القصة العربية القصيرة، ط1، عمان: دار الخليج 2021
ألفاظ الألوان ودلالاتها عند العرب، ط1، عمان: دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع، 2021
مفاهيم نقدية، ط1، عمان: دار الخليج، 2022
مشكلة البنية في الرواية العربية المعاصرة، ط1، عمان: دار الخليج، 2022
لغويات، ج1 و ج2 ، ط1، عمان: دار الخليج، 2021 – 2022
الرواية الكويتية بين جيلين، ط1، عمان: دار الخليج، 2022
صفوة المجتبي من الأدب المغربي، ط1، عمان: دار الخليج، 2022
في اللغة والتراث، ط1، عمان، دار الخليج، 2023
الإعلام عمَّن عرفتُ من الأعلام، ط1: عمان، دار الخليج 2023
مع النقد والنقاد، ط1،عمان: دار الخليج، 2023
الغاوون: عن شجون الشعر وسحر الموسيقى، ط1، عمان: دار الخليج 2023
بهاء طاهر وآخرون، ط1، عمان: دار الخليج، 2023
أوراق من الذاكرة، سيرة، ط1، عمان، دار الخليج،2024 ، ط2، عمان دار الخليج ، 2024
قراءات في كتب السيرة، ط1، عمان: دارا لخليج للطباعة والنشر والتوزيع، 2024
السياق وأثره في الدرس اللغوي- قراءة في التراث اللساني، ط1، عمان: دار الخليج، 2024
لغويات جـ 3، ط1، عمان: دار الخليج، 2024
في الشعر العربي الحديث والمعاصر، ط1، دار الخليج، عمان، 2024
رشادر أبو شاور وآثاره في القصة والرواية، عمان، دار الخليجن 2024
فخري قعوار دراسة في فنه القصصي، ط1، عمان، دار الخليج، 2024

محمد إبراهيم لافي شاعرا، ط1، عمان، دار الخليج، 2025
مفاهيم نقدية(2) ط1، عمان، دار الخليج، 2025
ظلال وأصداء أندلسية في الأدبالمعاصر ط2، عمان: دارالخليج.
في الرواية الأردنية الجادة، ط1، عمان: دارالخليج 2025
بعض ملامح النقد الأدبي في الأردن، ط1، مان: درالخليج، 2025
الشعر والجنون وقضايا أخرى فيا للغة والإبداع، ط1، عمان: دار الخليج، 2025
المشهد وملامحه في القصة الأردنية القصيرة، ط1ن عمان، دارالخليج، 2026
روايات وسير تحت الضوء، ط1، عمان: دارالخليج، 2026
مآثر الأعلام من فلسطين أرض السلام، عمان: دارالخليج ، 2026
مآثر الأقلام من الأردن أرض الوئام، ط1، عمان، دار الخليج، 2026
صفحات من مفكرة أديب، ط1، عمان: دار الخليج، 2026
الرواية الفلسطينية إلى أين؟ ط1، عمان: دار الخليج، 2026